وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رواية

إقليم القاهرة الكبري
وشمال الصعيد الثقافي
فرع ثقافة بني سويف

مترو

METRO

جمال عبدالله مصطفى

مترو METRO
جمال عبدالله مصطفى
الهيئة العامة لقصور الثقافة 2019

مترو

METRO

رئيس مجلس الإدارة
د. أحمد عواض
أمين عام النشر
جرجس شكرى
رئيس الإدارة المركزية
للشئون الثقافية
ممدوح أبو يوسف
مدير عام النشر
فؤاد مرسي
مدير عام الثقافة العامة
عبد الحافظ بخيت
الإشراف الفنى
د. إسلام عبد الحميد زكي

• مترو
METRO
• جمال عبد الله مصطفى
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة 2019م
19.5X13.5سم
• تصميم الغلاف: طلال
• المراجعة اللغوية: عمرو الروبى فتحى معوض

• الجمع والإخراج:
وحدة التجهيزات الفنية
الإدارة العامة للنشر الثقافي

• الإخراج الفنى:
إيمان حامد

وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة

إقليم القاهرة الكبرى
وشمال الصعيد الثقافي
فرع ثقافة بني سويف

رئيس الإدارة المركزية
لإقليم القاهرة الكبرى وشمال الصعيد
ومدير عام فرع ثقافة بنى سويف
إجلال عامر
مدير التحرير
د / أحمد تمام
مسئول النشر الإقليمي بإدارة الثقافة العامة
جيهان نمر
مسئول النشر الإقليمي بالإقليم
تهاني أبو جليل

• الآراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأى المؤلف وتوجهه فى المقام الأول.

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة
• حقوق إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابى من الهيئة العامة لقصور الثقافة. أو بالإشارة إلى المصدر

مترو

METRO

رواية

جمال عبد الله مصطفى

وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة

وزارة الثقافة

الهيئة العامة لقصور الثقافة

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

مصطفى، جمال عبد الله

مترو = Metro: رواية/ جمال عبد الله مصطفى .

ط ١ – القاهرة: وزارة الثقافة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠١٩.

١٣٦ ص، ٢٠ سم

١ – القصص العربية

(أ) العنوان

٨١٣

رقم الإيداع: ١٠٤٨١ /٢٠١٩

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

لماذا تصرين

على لعب دور الضحية ؟!

وتدعين أنه ما زال

في كأس المحبة بقية

فأنا قد هجرت الهوى قهرا

وأقلعت عن ركوب

بحر الغرام دهرا

وأحرقت جميع مراكبي

وبعت القضية

جمال عبد الله

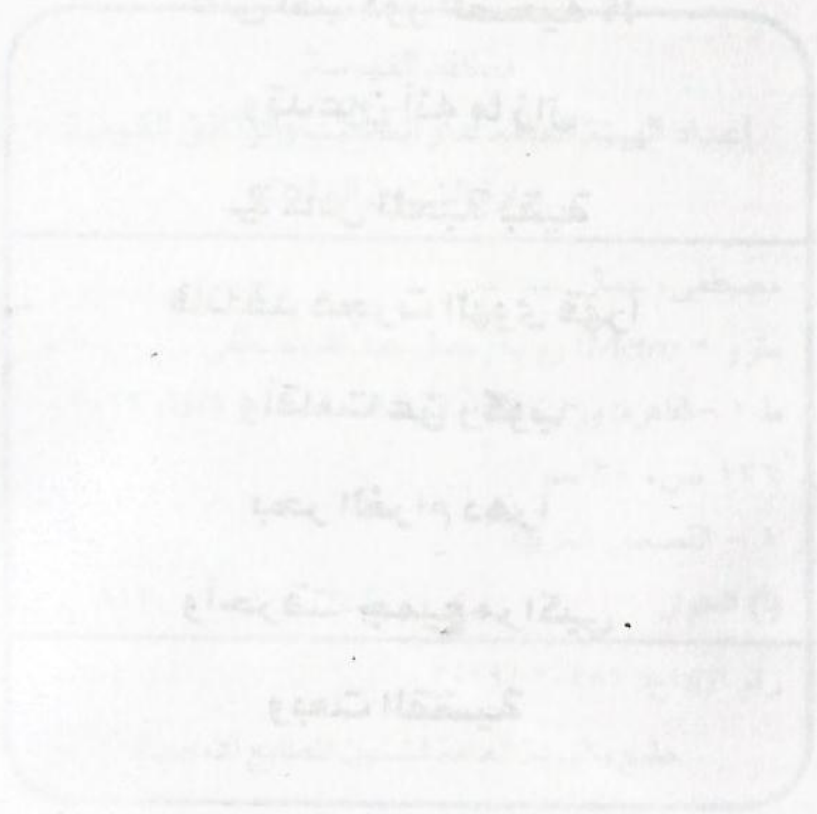

إهـــداء

إلى روح أبي وأختي حنان

إلى أمي وإخوتي

إلى زوجتي سعاد

وقرة عيني

عبدالله، دعاء، شريف

إلى جميع أحبتي وأصدقائي

أهديكم أولى رواياتي

جمال عبدالله

(١)

خارج أسوار المترو

لوكاندة الشعب .المنيب

الثلاثاء الموافق ٢٥ يناير ٢٠١١

الساعة ٨:٠٠ صباحا

أشعر بالبرودة تتسلل إلى جسدي تُجمد أطرافي، رغم أن الهاتف النقال لم يكف عن الرنين طوال الليل، لكنني أفتقد القدرة على إخراج ذراعي، من تحت الغطاء الذي أتدثر به، رغم تلك الإضاءة التي تنبعث من (الأباجورة). الواقفة كتمثال الحرية بجوار السرير.

ما أجمل النوم في ليالي الشتاء الطويلة!، خصوصا حينما تكون بعيدا عن جو الأسرة المشحون بالمشاكل ! صراخ الزوجة المتلاحق لأتفه الأسباب، ومشاجرات الأطفال التي لا تنتهي، ومتطلبات البيت التي تصيبني بالشلل، الأجواء بالبيت غير ملائمة

إطلاقا لأي ابداع، لا أستطيع الانفراد بكتاب لبضعة دقائق، أو كتابة كلمة واحدة، دون أن يتشتت انتباهي، لذا قررت أن أبتعد عن تلك الأجواء، بحثا عن الراحة الذهنية وصفاء الروح، حتى أتمكن من وضع الخطوط الرئيسية لروايتي الجديدة.

لكن يبدو أن متعتي تلك لن تستمر طويلا، فالهاتف النقال لا يزال يدق في رأسي، كناقوس كنيسة شرقية، فأجبرني على الاستيقاظ، قمت مفزوعا والتقطته من فوق (الكوميدينو) الرابض بجوار السرير، نظرت بنصف عين إلى شاشته الصغيرة، إنها زوجتي (سوسو)، ما أن شرعت في قبول المحادثة، حتى كف عن الرنين، فقرأت إشعارات الهاتف، . خمسون مكالمة فائتة.. سوسو.، يبدو أن هناك كارثة حلت بالبيت، بدأت الأفكار تتلاطم في عقلي كموج هادر، أطفالي الصغار، أبي المريض، حاولت أن أُطمئن نفسي، سوسو تطلبني لأتفه الأسباب، لكن قطع سيل أفكاري معاودة الهاتف للرنين من جديد، فقبلت المحادثة بسرعة، وإذ بها تعنفني، بعباراتها اللاذعة التي اعتدت عليها .

لازم أرن خمسين مرة عشان ترد.. مش ناوي ترجع بقه.. ولا لسه الوحي ما نزلش على دماغك يا سيادة المؤلف !

- صباح الخير يا سوسو.

- سوسو .. ما أنت سايب سوسو وعيال سوسو في عز الامتحانات وداير على حل شعرك في مصر، هترجع إمتى يا عم نجيب محفوظ ؟

- حاضر.. والله يا روحي.. هحضر الشنطة، وأركب أول قطر.

- لازم الليلة.. بيقولوا مصر فيها قلق.. خلي بالك من نفسك.. سلام.

- حاضر.. سلام يا سوسو.

اطمئن قلبي، وهدأت نفسي نوعا ما، أغلقت الهاتف النقال ووضعته في مكانه، ويدي اليسرى ما زالت تحتض رائعة تشارلس ديكنز « حكاية مدينتين «التي كنت أقرؤها منذ أن أويت إلى فراشي حتى غفوت، وضعت علامة عند الجزء الذي توقفت عنده.

.... غمس رجل فارع الطول أصبعه في الطين المبلل بالنبيذ الأحمر، وكتب على الحائط خمسة أحرف كبيرة هي BLOOD (الدماء)، فسيأتي الوقت، عندما ينساب الدم في شوارع سانت أنطوان ليخصب أحجارها باللون الأحمر....

ثم أغلقت الرواية، وأنا لا أزال أشعر بالتعب والإرهاق من سهرة أمس بمقهى الفيشاوي مع بعض الأدباء والمثقفين وأصدقاء القاهرة، ظللنا حتى أذان الفجر نتسامر ونحن ندخن النرجيلة، والتي ما زال دخانها يجثو على صدري، صليت الفجر في مسجد سيدنا الحسين، ودلفت إلى تلك اللوكاندة المتواضعة، في منطقة المنيب المزدحمة بالسكان.

قمت من سريري، واتجهت نحو النافذة وفتحتها بقوة، وإذا برياح باردة تجتاح الغرفة، فالسماء ملبدة بالغيوم، والأجواء تنذر بسقوط مطر غزير، والشوارع هادئة، رغم الزحام المعتاد على عربة الفول أسفل اللوكاندة، شعرت بالجوع، فقررت أن أهبط لأتناول وجبة الإفطار على المقهى المجاور للوكاندة، وأعاود التجول في الشوارع من جديد، لعلي أستطيع اقتناص فكرة لروايتي الجديدة ، لكنني تذكرت تعليمات زوجتي، أن أعود الليلة «بيقولوا مصر فيها قلق»، هرشت في رأسي، وأغلقت النافذة من جديد، وتثاءبتُ وأنا أعود إلى سريري مرة أخرى.

نظرت إلى لوحة التقويم المعلقة على الحائط، والتي تشير إلى الاثنين الموافق الرابع والعشرين من يناير، نظرت إلى تاريخ اليوم في هاتفي النقال، قمت من سريري لأنتزع تلك الورقة التي أصبحت ماضي، حاولت أن أسحب الورقة بقوة، فاصطدم إصبعي السبابة

بالمسمار الذي يثبت الورقة، فخرج الدم كشلال صغير، فوضعت إصبعي في فمي، ثم أخرجته، ونزعت الورقة بلطف فظهر تقويم اليوم، الثلاثاء الموافق الخامس والعشرين من يناير للعام الفين وأحد عشر، مسحت الدماء بتلك الورقة ثم ألقيتها في سلة المهملات.

هرعت إلى الحمام، أخذت حماما ساخناً، وخرجت وأنا أشعر بالانتعاش، سحبت سيجارة من علبة سجائري الملقاة على المنضدة، والتي تغطيها الكتب والأقلام والأوراق المتناثرة، أشعلتها وأطلقت دخانها في الهواء البارد، وأشعلت موقد القهوة (السبرتاية) لأصنع فنجانا من القهوة التي أعشقها، وما أن إنتهيت، حتى شرعت في إرتداء ملابسي، البنطال الجينز الأزرق والمعطف الأسود الثقيل، شربت القهوة على عجل، وفتحت الدولاب وجمعت ملابسي، في تلك الحقيبة الجلدية الكبيرة الملقاة على السرير، ووضعت بها الكتب التي أحضرتها معي، وكذلك الكتب التي كنت قد إشتريتها من سور الأزبكية، أثناء فترة تواجدي في القاهرة، ولم أنس العروسة التي طلبتها إبنتي دعاء، والتي إشتريتها من خان الخليلي، إنتهيت من تحضير حقيبتي، وسحبتها على عجل، وأغلقت الباب خلفي، وهبطت الدرج، حتى وصلت إلى الحاج مطاوع صاحب اللوكاندة، الذي يقف خلف مكتبه كتمثال رمسيس، والذي ما أن رآني حتى بادرني بالسؤال:

- على فين يا باشا، أنت مش قولت إنك هتكمل معانا لحد معاد معرض الكتاب.

- والله يا حاج مطاوع.. جالي تليفون من البلد ولازم أنزل.. جهز الحساب وخلي الشنطة دي عندك لحد ما أفطر وأشتري الجورنال وأرجع.

- تحت أمرك يا باشتنا، وعلى العموم أُوضتك موجودة، ترجعلها في أي وقت.

خرجت من اللوكاندة رأساً إلى عربة الفول، والتي يقف خلفها عم سيد، ببدانته الواضحة، ووجهه المستدير الذي يشع نضارة، وقفت وسط المحتشدين أمامه، من عمال وحرفيين وسائقين، والذين يحَّضرون أنفسهم للذهاب إلى العمل. لكن لابد لهم من وجبة الفول اليومية. تمتد الأيادي لتحصل على الفول أو لتدفع ثمنه، وبدأ يصل إلى أذني حوار غير معتاد، قال أحدهم، وهو يلتهم سندوتش الفول.

بيقولوا فيه ثورة النهاردة يا عم سيد

- ما تصدقش .. ده كلام جرايد .. هو إحنا حِمْل ثورات..

- ما أنت شوفت اللي حصل في تونس

- يا عم صلاح، تونس دي كلها على بعضها، أد بولاق الدكرور، إحنا لو قمنا بثورة البلد هتخرب، إشتري مني وما تراجعش ورايا..

لاحظت أن هناك رجلا يجلس على كرسي بجوار عربة الفول، كان يتابع الحوار منذ البداية، ويبدو أن الحوار لم يعجبه، أنزل الجريدة التي يحملها بين يديه.وأطل علينا بوجهه الذي تكسوه التجاعيد ونظارته الطبية السميكة، وسماعة الأذن التي تتدلى من أذنه، وبدلته السوداء، التي يفهم منها أنه موظف على المعاش، نظر الينا بسخرية.

ثورة إيه بلا خيبة، هو الشعب ده عمره قام بثورة !

ثم قام وطوى الجريدة، ووضعها تحت إبطه، وانصرف وهو يتمتم بعبارات غير مسموعة.

وفجاة ظهر في المشهد، رجل في حوالي الأربعين من عمره، والذي ما أن رأيته، حتى حضر إلى ذهني، صورة المخبر السري الذي يظهر في السينما المصرية، بالبالطو الأسود الطويل، وتحته الجلباب الشتوي، وعلى رأسه الطاقية، بشاربه الكثيف، وملامحه القوية، والجريدة المطوية تحت ذراعه:

- ما تخافوش يا جماعة.. لو حصل حاجة، الداخلية هتخلص الموضوع في ساعة زمن

أخذت السندوتشات دون أن أنطق ببنت شفه، فالخبرة علمتني، أن لا أنساق في حوارات تمس الحكومة، حتى لا أقع تحت طائلة المخبرين، اعتدت أن أسمع وأصمت، وكأنني من الصين الشعبية، لا أريد الوقوع في مشاكل، يجب أن أعود إلى سوسو بسلام.

إتجهت إلى المقهى، وأنا أحمل طعام الإفطار، جلست على أقرب منضدة، وفرشت السندوتشات عليها، وطلبت من القهوجي، أن يحضر لي الشاي، وجلست ألتهم طعام الإفطار، والحوار الذي يدور في المقهى، لا يختلف عما يقال بجوار عربة الفول.

أحضر لي القهوجي الشاي، فشربته على عجل، وكل الحوارات

تدور في رأسي، وكلمات سوسو ما زالت ترن في أذني، كصوت قطار الصعيد ..

.. لازم الليلة.. بيقولوا مصر فيها قلق..

اتجهت إلى أقرب كشك جرائد، تصفحت الجرائد القومية، والتي تؤكد أن الدعوات التي تنادي بالثورة، تأتي من أحزاب المعارضة، التي فشلت على مدار عقود، في تحقيق أي نتائج على الأرض، وتستغل ما حدث في تونس، للحصول على مكاسب من النظام.

تصفحت جرائد المعارضة، فوجدتها تشحن الجماهير للنزول إلى الميادين اليوم..وتذكرهم بأخطاء النظام على مدار عقود حكمه...

لم أشغل عقلي بكل هذا، فلقد قررت العودة، بعدما فشلت في وضع الخطوط الرئيسية لروايتي الجديدة، لم أجد موضوعاً أو مكاناً أو بطلاً تدور حوله أحداث الرواية، فتشت في الشوارع والمقاهي وعربات المترو، لكنني فشلت بامتياز، أنفقت كل مدخراتي بلا جدوى.

سأعود إلى بلدتي صفر اليدين.

قررت أن أعود إلى اللوكاندة، لأخذ حقيبتي، وألحق بمترو المنيب، ومنه أنزل محطة رمسيس، لأركب قطار الثانية عشر ظهرا، المتجه إلى الصعيد، حيث مقر إقامتي.

مررت على اللوكاندة، أخذت حقيبتي ودفعت حساب الليالي التي قضيتها، وودعت الحاج مطاوع ، واتجهت إلى محطة المترو.

رغم البرودة الشديدة، والسماء التي تنذر بسقوط مطر غزير، غير أن شارع جمال عبدالناصر، لا تنقطع عنه الحركة، مزدحم دائما بالباعة الجوالين، تحركت بصعوبة وسط الزحام، الذي بدأ يسيطر على الشارع، وكأنه يوم الحشر، أكتاف وأيادي وأرجل تصطدم بي وأنا أسير، وأصوات الباعة تخترق أذني كصواريخ العيد بلا استئذان.

فجأة رن هاتفي النقال، أخرجته من جيب البالطو بصعوبة، ونظرت في شاشته الصغيرة، إنها زوجتي سوسو، من المؤكد أنها ستطالبني بسرعة العودة، وما أن وضعت الهاتف على أذني، حتى شعرت بدراجة بخارية تمر بجواري، ويد راكبها تمتد إلى يدي وتخطف الهاتف، وتفر بعيداً بسرعة البرق، شعرت بالفزع، ولم أنطق سوى بعبارة

- طيب لو سمحت بلغ سوسو إني راجع الليلة .. هاااا

ولم أتمالك نفسي من الضحك.. لقد إنتهيت من زن سوسو، أقصد رن سوسو حتى أعود اليها الليلة، محملا بخيبة الأمل، وضياع مدخراتي، والهاتف النقال أيضا.

(٢)

المنيب

محطة مترو المنيب

الساعة ١٠:٠٠ صباحا

وصلت إلى محطة مترو المنيب، واتجهت إلى شباك التذاكر المزدحم كالعادة، وطلبت تذكرة من تلك السيدة السمينة، القابعة خلف الشباك الزجاجي، فأعطتني إياها، بعدما ألقيت اليها بعملة معدنية فئة الواحد جنيه، وتوجهت بحقيبتي إلى رصيف المحطة، هذا الرصيف الذي أحفظه عن ظهر قلب، وأعرف رواده الذين يترددون عليه يومياً، فالمترو هو وسيلة المواصلات التي أفضلها، بعيداً عن زحام القاهرة الكبرى.

المترو .. تلك النسخة الكربونية المصغرة، من ذلك العالم الذي تحتله الشمس، المزدحم بملايين البشر الذين يرتادونه يوميا، ولكل واحد من هؤلاء حكاية، تختلف أو تتفق مع الآخرين، لكنها بأي حال من الأحوال تستحق أن تروى.

هذه البنت بائعة المناديل، والتي تمر بين رواد المترو، تستعطفهم لكي يشتروا منها . وكأن بيع المناديل صار وسيلة للتسول، وحينما تفشل في أن تستدر عطف الزبائن، تشاغلهم بعيونها السوداء، التي تخطها بالكحل الأسود، مع بعض الإغراء من جسدها المكتنز، لتجبر غريزتهم على إخراج العملات الورقية من جيوبهم شبه الخاوية، وفي شهر رمضان ترتدي النقاب الأسود الذي لا يظهر سوى عيناها، وبصوت أشبه بصوت راهبة في كنيسة، توزع الدعوات للحصول على بضعة جنيهات نظير علبة المناديل.

هذا الشاب الذي يقف هناك تحت لوحة المحطة، يرمق رواد المترو بعيونه الفاحصة، يفتش فيما بينهم عن زبون تمتليء جيوبه بمحفظة عامرة بالجنيهات، ليمارس هوايته المفضلة، في اصطيادها بخفة يده المعروفة.

هذه السيدة العجوز، ذات الملابس السوداء، والتي تدعي أن ابنها مريض بالسرطان، وتحتاج إلى أموال لبدء رحلة العلاج، رغم أنها منذ أيام قليلة، كانت تدعي أن ابنها مات ولا تجد من يعولها.

هذا الشاب الدنجوان صاحب العيون الجوعى، والذي يفتش بين رواد المترو عن فريسة، يلتهم جسدها بعيونه، قبل أن يتحسسها بيده أو بجسده، ورغم أن الجميع يعرف أنه

(المتحرش الرسمي لخط المنيب: التحرير). غير أنه لا يخجل من تكرار أفعاله بتبجح.

هذا الرجل الذي يرتدي بدلة اسموكن سوداء، ويحمل حقيبة جلدية، يتحدث في هاتفه النقال طوال الوقت، ليؤكد لكل موكليه أنهم أبرياء، وأنه سيخرجهم من القضية، كالشعرة من العجين، يفتش في القضايا عن ثغرة، ليخرج المجرمين والمرتشين واللصوص، يتلاعب بالأوراق والمستندات ليضلل العدالة، يفعل أي شيء من أجل الأموال.

هذان الشابان اللذان يعزف أحدهما على آلة (الأكورديون) بينما الآخر يغني بصوت ثوري جميل « قوم يا مصري.. مصر دايما بتناديك » ورواد المترو ملتفون حوله يصفقون، ويرددون « نصري دين واجب عليك » ثم يخرجون عملاتهم المعدنية ليضعونها بجواره.

أمين الشرطة الذي يحافظ على النظام داخل المترو، يخشاه الجميع، فهو رمز الحكومة، القادر على تحويل حياتهم إلى جحيم، يسعى باعة المترو لكسب وده، في حين يتحاشى رواد المترو، الوقوع في أي محظورات تخالف نظام المترو في أثناء وجوده...

ما زلت أفتش فيما بينهم عن شخص، أسرد حكايته، أعيش بداخله، أستخرج أسراره، تعبت من البحث بداخل كل تلك الوجوه العابثة، بحكايتهم المكررة ونهايتها المعروفة.

حتى رأيت ذلك الشاب الذي دخل المحطة للتو، وقف وسط هؤلاء الذين اصطفوا على رصيف المحطة، يحتمون بملابسهم الثقيلة من برد الشتاء القارس، مر بينهم بسرعة، فرمقه الجميع بجسده النحيف وبشرته السمراء، وعيونه الواسعة، وشعره الطويل، والذي يبدو أنه لم يرجله منذ عدة أيام، فبدا وكأنه قطعة من الليف، بجلبابه الأزرق وسترته الشتوية الرثه شبه الممزقة، وصندوقه الخشبي الذي يتدلى من كتفه بحزام قصير، رغم ساعته (الكاسيو) التي تلف معصمه، والقلم الذي يقف في جيب سترته، كشرطي مرور كسول، البعض تهكم على هذا الكيان المختلط، والتركيبة الغريبة، والبعض رآه نموذجا من تلك النماذج الهلامية، التي يمتلىء بها المترو يوميا، من مجانين وشحاذين.

(شريف حمدان) ذلك الشاب الذي كان يرتاد المحطة على مدار أربعة أعوام، يركب من محطة المنيب، ويهبط في محطة جامعة القاهرة، ولكن ما الذي دهاه، أين تلك النضارة والحيوية، أين روح الشباب، كنت أراه متفائلا، طموحا، يوزع ابتساماته على الجميع، يترك مقعده ويقف، لتجلس مكانه سيدة عجوز، يمد يده ليساعد عاجز أو مريض لركوب المترو، يحتضن كتبه الجامعية، كطالبة ثانوي خجولة، تلمحه يتمتم بأذكار الصباح بخشوع، يتحاشى التطلع إلى رواد المترو، من البنات والسيدات، ما الذي جرى له ؟

لقد أصبحت هدفي يا شريف حمدان. سأدخل عالمك بلا استئذان. سأحصل على أسرارك الخفية. سأدخل صفحتك الشخصية. لأتجول داخلها بحريتي. بدون أن أضع كلمة المرور. سأقلب في ماضيك وحاضرك ومستقبلك. سأعود إليك يا سوسو بروايتي الجديدة.

وقفت عربة المترو على الرصيف. وازدحم الجميع أمام الأبواب. ودارت معركة بين مئات البشر. التحام بشري لركوب المترو. وهجوم بشري مقابل للنزول. فالرصيف ممتلىء عن أخره بمئات البشر. الكل يبحث عن باب العربة ليركب. أو يحاول وضع قدمه على الرصيف لينزل ويغادر المحطة. لا أحد ينتظر. طاحونة تدور ولا أحد يستطيع أن يوقفها.

اخترق الزحام وركب بصعوبة. وألقى بجسده على أقرب مقعد. وضع صندوقه الخشبي على الأرض. وأسند رأسه على شباك العربة. وعينيه التي يبدو عليها الإرهاق. تراقب تلك اللوحة المعدنية المكتوب عليها بالبنط العريض « محطة المنيب » تلك المنطقة التي يطلقون عليها بوابة الصعيد. والتي أتى إليها والده. منذ أكثر من خمسة وعشرين عاما. هرباً من الثأر. الذي حاول جده أن يلطخ به ثوب والده الأبيض. رفض أن يأخذ بالثأر من قاتل أخيه. رغم الضغط الشديد الذي مارسه جده.

التار ولا العار يا حمدان يا ولدي!

وما ذنبه بما فعله أخوه نعيم ذو الثلاثين ربيعا، الممتلىء الجسد، الأبيض الوجه، بشعره الناعم ورائحته الذكية، فهو كما يقولون « دلوعة أمه «، لم يرتد يوما ملابس الحقل، أو يشمر ساعديه، ليساعد أباه في أعمال الزراعة، حياته كلها ترف وعربدة، ينام طوال

النهار، ويسهر طوال الليل، تجده دائما في الموالد، يلهث خلف الغوازي، يستنزف أموال أبيه بسفه. لم يترك بنتاً من بنات القرية، إلا وحاول التحرش بها، حتى ولو بنظرة من عيونه العسلية، نجح مع بعضهن، وفشل مع الكثيرات، حتى وقع في حب سهير، أخت سليم صديق أخوه حمدان، تلك الفتاة الثلاثينية الجميلة، بيضاء البشرة، ذات النمش المتراكم حول عينيها، والذي يعطيها فتنة على فتنتها، تلك المتأنقة التي أنهت دراستها في البندر، وتخلت عن ملابس الريف، وأصبحت ترتدي ملابس بنات البندر، وتضع الأصباغ، فأطلق عليها أهل القرية « عروسة المولد «.

رفضت الكثيرين حتى تأخر سن زواجها، فهي تحلم بالعيش في البندر، بعيدا عن لون الطين، ولدغات الناموس وصوت الضفادع، تريد أن تهاجر بعيدا عن حياة الريف، بعاداته وتقاليده، إلى مكان لا يسأل فيه أحد عن تصرفات أحد، فهي نسخة كربونية من ذلك الولد المدلل نعيم.

أعجبت سهير بوسامته ومظهره وتأنقه الملفت للنظر، وتاريخه النسوي، الذي لا يخفى على أحد. فحكاياته مع الغوازي تروبها جلسات القرية. تناست أنها من عائلة كبيرة. لن ترضى بهذا الشاب المستهتر ليكون زوجا لابنتهم.

أما أخوها سليم، فكان يمني نفسه بأن يزوجها من صديقه حمدان، الذي يبدو على النقيض تماما، من أخيه نعيم، بسمارد الذي لونته حرارة الشمس، ولون الطين الذي صبغ يديه، يعشق الأرض كما تعشقه، يشيد الجميع بأخلاقه، ورجولته والتزامه الديني، لدرجة أنهم يقدمونه في الصلاة، فحمدان حديث الناس، وحلم بنات القرية، الذي أحب سعاد ذات العيون النجلاء والوجه الخمري والملامح المنمقة، ابنة أحد الفلاحين البسطاء، الذين لا يملكون من حطام الدنيا، إلا عدة قراريط يزرعونها، والتي رغم أنها حصلت على دبلوم المدارس التجارية من البندر، إلا أنها ما زالت ترتدي الملابس القروية، تعشق الأرض، تشارك أخوتها في أعمال الحقل بلا خجل. لم يلتفت حمدان إلى معارضة والده، تزوجها رغما عن الجميع، وأنجب منها شريف، فأصبح زواجهما أمراً واقعاً.

نصح حمدان أخاه، أن يبتعد عن سهير، حتى لا يخسر صديقه سليم، وأن ما يفعله سيفتضح أمره يوماً ما، لكنه رفض نصائح أخيه، وتمادى في غيه، حتى عرف الجميع بقصة حبهما،

وصارت حديث أهل القرية، في الحقول وحول مواقد النيران الليلية.

قرر نعيم وسهير الهرب بعيدا عن القرية بعاداتها وتقاليدها العقيمة، وأصبحت عائلة سليم في موقف لا تحسد عليه، هربت ابنتهم مع شاب، إنها كارثة بكل المقاييس، كانت نظرات سليم إلى صديقه حمدان، تبدو كسهام مشتعلة في سماء سوداء حالكة، وكلماته لا تخلو من نبرة التهديد، وما عساه أن يفعل، فأخوه قد لطخ ثوب العائلة، وحتما سيدخلها في طاحونة الدماء.

شوفت أخوك عمل فينا كيف يا حمدان، قسما بجلالة الله، أول ما هلاقيه لأقطع من جسمه نسايل نسايل، وهخلي اللي ما يشتري يتفرج عليه .

شهور طويلة قضاها سليم، يفتش عن أخته، التي جلبت لهم العار، حتى تمكن من العثور عليهما في إحدى الشقق المفروشة بمركز جرجا، فقتلهما وهرب من موقع الجريمة، وعاد إلى القرية، دون أن يشعر به أحد، ورغم أن الجميع، على يقين بأنه القاتل، لكنه أنكر أمام النيابة، وتم الإفراج عنه لعدم كفاية الأدلة.

لقد أخذ بثأره، ورفع رأس عائلته، فما جدوى الموت خلف أسوار السجن، أو تقديم رقبته لحبل المشنقة، استلم جثة أخته، وألقى بها في حفرة بجوار مقبرتهم، ليلعنها كل من مر بها، وحتى لا تلوث جثث شرفاء العائلة.

أما على الطرف الآخر، رفض والد حمدان أخذ العزاء في ابنه نعيم، وأعتبر هذا إعلانا لبدء دوران طاحونة الدم التي لن تنتهي، وليتحول أصدقاء الأمس إلى أعداء، فيقف حمدان وسليم وجها لوجه. أعطى والد حمدان لابنه فرمانا، لأخذ ثأر أخيه على وجه السرعة، لكن حمدان رفض أن يقتل صديقه ورفيق طفولته، أن يكون طرفا في تلك المعادلة الخاسرة.

كانت ضغوط والده أكبر من تصوره، حاول معه باللين والعنف، لكنه أصر على الرفض رفض أن يدخل طاحونة الدم، التي لن تنتهي حتى تأتي على الأخضر واليابس، وتحصد أرواح خيرة رجالهم، رفض أن يقف وجها لوجه أمام صديق عمره سليم، أن يضحي بنفسه وبمستقبل أسرته الصغيرة، من أجل هذا المستهتر، الذي أخذ جزاءه، وانتهى الأمر، قرر أن لا يجرفه تيار الثأر من أجل إرضاء روح الشيطان، في استمرار تلك العادة العقيمة، التي طالما كان يرفضها.

لقد أخطأ أخوه نعيم، وأخذ جزاء فعلته، أما حمدان، فما زالت زوجته صغيرة، وابنه شريف لم يتعد عمره الثلاث سنوات، والمستقبل ما زال مفروشا بالورود..

.. قدامك حل من تنين، إما تاخد بتار أخوك، إما تخرج من بيتي. لا أنت ابني ولا أعرفك.

لكنه قرر أن يخرج من البيت، أن يترك الأرض التي رواها

بعرقه، والتي حصدت أجمل أيام عمره، قرر أن يُطرد من الجنة، حتى لا ينتهي به المطاف أن يلقى في النار.

احتضن زوجته وابنه وخرج من البيت، لم تشفع نداءات شريف لجده، لقد تحجر قلبه، نسي حمدان ذراعه الأيمن، وابنه البار الذي لم يعصه أبدا، بل كان دائما طلوع بنانه، لقد أصبحت نار الثأر هي التي تحركه.

انتقل حمدان ليعيش في بيت أهل زوجته، يشاركهم العمل في عدة قراريط يمتلكونها، رغم أن ظروفهم المادية، لا تتحمل أن يشاركهم قوت يومهم، فقرر أن يحمل فأسه، ويعمل كأجير ليكسب قوت يومه، حتى لا يمد يده إلى أحد، فكان ما فعله حديث القرية، حتى صديقه سليم أشفق عليه، مما أصابه بلا ذنب.

كان حمدان يضرب الأرض بفأسه ليلقي بالبذور، وبينما رفع رأسه ليمسح حبات العرق المتناثرة على جبهته، حتى رأى صديقه سليم يقف أمامه، بطوله الفارع وجسده القوي وابتسامته المميزة، فلم يشعر إلا وهو يلقي بفأسه على الأرض، ويجري نحوه ويرتمي في أحضانه، ليبكي الاثنان على الحال الذي وصلا إليه.

- عارف إن كل اللي حُصُل لك ده، ما ليكش ذنب فيه واصل يا صاحبي، لكن لو كنت مكاني كنت هتعمل اللي علمته ويمكن أكتر كمان.

- ولا يهمك يا خوي.. كله مكتوب ومتسطر على الجبين.. المهم دلوقت إننا لسه أخوات.. خلي بالك من نفسك، بوي مش راح يسكت واصل.. إلا لما ياخذ بتار نعيم منك.

وبينما هما يتحدثان، انطلقت رصاصة من بين تلك الأشجار البعيدة، استقرت في قلب سليم، والذي سقط في حضن صديقه، والدماء تغرق جسده، وعيناه زائغتان وروحه تصعد وهو يتشبث بجسد حمدان، بعيونه التائهه تفتش عن القاتل، وسليم يهمس بصوت واهن ضعيف، . أين صوتك يا سليم، الذي كان يجلجل منذ دقائق...

- إهرب يا حمدان.. إهرب يا صاحبي.. بوي مش راح يسيبك واصل.

تمكن حمدان من رؤية القاتل، بل عرفه وهو يهرول بين الحقول، إنه أخوه عثمان، بطوله الفارع، وجسده النحيف، شاب لم يتجاوز العشرين ربيعا، استجاب لضغط والده، لقد فقد حاضره ومستقبله . من معك الآن يا والدي، كلنا ضعنا من أجل تدليلك لنعيم .

بدأت الدائرة تدور حول حمدان، لقد أصبح الآن هو الهدف، أو إبنه شريف، فكما يقولون « إقتل اللي يوجع « سيقتلون ابنه، وقد يدفعه الغضب، أن يدخل طاحونة الدم بلا إرادة منه، ما زالت كلمات صديقه سليم ترن في أذنه، يطالبه بالهرب، فالموت ينتظره.

اضطر حمدان أن يترك العمل ويعتزل الناس، ويمكث في البيت، بدلا من أن يزرع الأرض فتطرح خيرا، أخذ يزرع الأرض بخطواته المرتعشة، فتطرح قلقا وخوفا، وسؤال كبير يطارده، ماذا سيفعل في تلك الورطة ؟ لقد أتى عليه الدور أن يُقتل لا أن يقتل.

ظل طوال الليل، راقداً في سريره يحملق في السقف وبجواره زوجته، يمسك يدها ويقبلها، كأنه يودعها، يطلب منها أن تسامحه، أن تغفر له ضعفه وعجزه وقلة حيلته.

- ناوي على إيه يا حمدان ؟

لم يجب زوجته، بل قام مفزوعا، وشرع يفتش في دولاب ملابسه،عن النقود التي جمعها، لقد قرر أن يهرب بعيداً جداً، ويترك كل شيء، يغلق تلك الصفحة من حياته، ويحمل زوجته وابنه ويرحل إلى أرض جديدة، بعيدة عن تلك الأرض التي تعكرت بلون الدم.

في إحدى الليالي الشتوية المظلمة، احتضن زوجته وابنه شريف، وهرب في قطار الليل المتجه إلى القاهرة، كان قلبه ينقبض مع كل دقيقة، وهو يبتعد عن موطنه وأرضه، ويتجه إلى أرض غريبة لا يعرف فيها أحداً.

كانت ضربات القطار على القضبان الحديدية، تضرب رأسه، وصوته يزلزل كيانه، إلى أين سيذهب ؟، لا يدري المستقبل الذي

ينتظره . كل ما كان يشغل باله أن يهرب بلا رجعة. أن يترك الماضي خلفه. لقد أقسم ألا يعود أبداً. مهما حدث.

طوى القطار الأرض طيا. حتى وقف في محطة الجيزة. نزل حمدان وخلفه زوجته تحمل ابنه شريف النائم في حضنها كملاك صغير. لا يدرى ما يدور حوله. ما هو المستقبل الذي ينتظره. حتى وصلوا إلى المنيب. حيث يسكن شعبان أحد أبناء قريته. والذي هرب منذ سنوات طويلة. لنفس السبب. سأل عنه كثيرا. حتى عثر عليه.

وجده يسكن في غرفة في بدروم إحدى عمارات شارع جمال عبدالناصر. رحب به كثيرا. وفرح برؤيته. سأله عن حال القرية وأخبار أسرته التي تركها منذ عقود.

ظل طوال الليل يستمع إلى قصته. أشفق عليه. ورق لحاله. حينما نظر إلى ابنه الذي لم يتعد الثلاث سنوات. فترك لهم الغرفة. لكي يناموا فيها الليلة بحريتهم. ونام هو على الرصيف خارج البيت. في الصباح اتفق مع صاحب العمارة. أن يسكن حمدان في الغرفة المجاورة. وبقي أن يبحث له عن أي عمل. يدر له دخل يعيش عليه.

كان يحمل عدة آلاف من الجنيهات. كل ما استطاع جمعه. غامر بالدخول في أكثر من مشروع. لكنه فشل وبجدارة. فهو لا يعرف إلا أن يحمل فأساً. يزرع الأرض ويتابعها على مدار

شهور حتى يحصد خيرها، ظل يستنفد أمواله حتى أصبح صفر اليدين.

أما شعبان فكان يعمل ماسحا للأحذية، تلك المهنة التي امتهنها حتى يستطيع العيش، حتى كبر سنه، وأصابه المرض، وأصبح غير قادر على العمل ، فعرض على حمدان، أن يأخذ صندوقه، ويجلس مكانه أمام مجمع التحرير، حيث يرتاده آلاف البشر يومياً، والرزق الذي يأتي يقسم فيما بينهما.

لمعت الفكرة في رأس حمدان، وخلال أيام، علمه شعبان أصول الصنعة، كان يشعر بالخجل من تلك المهنة، خصوصا حينما اصطحب معه شريف ذات مرة، فرأى في عينيه

مسحة حزن، أن يرى أباه يمسح أحذية الناس، لكنه حينما كان يعود في آخر النهار، وجيبه ممتلىء بالنقود، حاملا الطعام واحتياجات أسرته، ينسى كل متاعبه.

اطمئن بحياته الجديدة، راضيا بما يجود به عمله من جنيهات يسد بها رمقه. تناسى ذلك الفلاح حمدان، الذي كانت أرضه هي حياته، وحينما كان يحن إلى الأرض، يصطحب أسرته إلى الحدائق الخضراء، فينشرح صدره، حينما يرى اللون الأخضر الذي يلون الأرض والأشجار.

أما سعاد، فقبلت كل شيء رغما عنها، تركت قريتها وبيتها وأهلها، من أجل أن يعيشوا في سلام، لكنها كرهت حياة المدينة،

تلك المنطقة العشوائية، التي تمتلىء زحاماً ودخاناً ومشاكل لا تنتهي، مضايقات بعض رجال المنطقة، الذين يرمقونها بعيونهم الجوعى، كلما مرت بهم، كلماتهم الجارحة، وعباراتهم التي تخدش الحياء، التي لو أن أحد تلفظ بها في قريتها، لسالت الدماء أنهارا، لم تشعر بالراحة ولا بالأمان، كانت تتوقع مستقبلا لا يسر.

عادت ذات يوم باكية، وحينما رآها حمدان، سألها عما يبكيها فرفضت أن تخبره، خشية أن توقعه في مشاجرة مع هؤلاء الأوغاد عديمو الأخلاق، لكنه حلف عليها بالطلاق أن تخبره، فأخبرته أن هناك شخصا، يجلس على مقهى الشارع، دائما يغازلها كلما مرت به، يلقي عليها كلماته الجارحة، يتحرش بها بعيونه، يسمعها كلمات لا تليق، فجذبها من ذراعيها وخلفهما شريف، حتى وصلا إلى المقهى، فأشارت سعاد إلى ذلك الرجل الجالس بين رجاله كالفتوة، بجسده الممتليء وملامحه التي تشبه الخرتيت، فما كان من حمدان إلا أن جذبه من ملابسه، وسحبه من وسط رجاله وطرحه أرضا، وظل يضربه بقوة، كما ضرب رجاله الذين تدخلوا للدفاع عنه، حتى تجمع أهل الشارع وخلصوهم من يده بصعوبة.

نظرت سعاد إلى رجلها حمدان نظرة فخر وإعجاب، وشعرت بالأمان، لقد أحسنت الإختيار، حمدان ليس جبانا بل رجل شجاع، لم يهرب من القرية إلا خوفا عليهم، لقد ترك ساحة

المعركة، لأنه على علم اليقين بأن المعركة خاسرة، حتى ولو خرج منتصرا وحمل أكاليل الغار.

منذ تلك الحادثة صار أهل الشارع يخشون الاقتراب منها أو محاولة التحرش بها ولو بالنظرات، بعدما رد حمدان لزوجته كرامتها. وصار أهل الشارع يقدرون حمدان، ويطلقون عليه «حمدان الصعيدي».

(٣)

ساقية مكي

أفاق على صوت مكابح عربة المترو، التي وقفت للتو لاستقبال وافدين جدد، وطرد الوافدين القدامى، تماما مثل الحياة التي تستقبل كل يوم ملايين البشر، وتودع مثلهم، إنها تلك الدائرة المفرغة التي لا تنتهي، تأمل تلك اللوحة المكتوب عليها «ساقية مكي»، فُتح باب العربة، فركبت فتاة متوسطة الطول، خمرية البشرة، بنية العينين، بشعرها الأسود القصير، الذي ينتهي عند أذنيها، اللذان يتدلى منهما حلق ذهبي صغير، ترتدي بنطال أزرق جينز وتي شيرت أحمر، تحمل بين يديها كتبا جامعية، رمقها بعيونه، فسال لعابه، فنظرت إليه من تحت نظارتها الطبية، ثم أعطته ظهرها، فالتفت إلى تلك اللوحة من جديد، والمترو يتحرك مسرعا.

****

ذكرته تلك الكتب الجامعية. بإصرار والده أن يلقي به على عتبات التعلم، فهو يرى أن العلم هو سلاح الإنسان القوي، وطريق المستقبل الناجح. العلم هو السبيل الوحيد لتعويضه عن ما تركه في الصعيد. لقد هرب صفر اليدين. ويجب أن يعوض ما فاته، بوصول ابنه إلى أعلى الشهادات الجامعية. فلن يستطيع أن يترك له أكثر من ذلك.

ألحقه بكتاب الشيخ طه بمسجد الرحمن. ليحفظ القرآن الكريم. ويتعلم أصول القراءة والكتابة. فأظهر تفوقاً في قدرته على الحفظ. وفهم آيات القرآن الكريم. والحديث النبوي

- بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ(٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩)

- مين بقه يقدر يقولي.. معنى الميزان في الآية الكريمة ؟

سكت الجميع، والذين كان صوتهم يصل إلى آخر المسجد. إلا شريف الذي أجاب بكل ثقة، بصوته الجهوري الذي أسمع الجميع

- العدل يا سيدنا .

- أحسنت يا شريف.. صفق له يا ولد انت وهو.. خيبة الله عليكم

تنبأ له الشيخ طه بمستقبل كبير، وقربه إليه، وكان كفيف البصر، فكلف شريف أن يحضره يوميا من بيته بحارة ياقوت في الصباح، ويعيده إليها في المساء، ونظير ذلك رفض أن يتقاضى منه أجرة الدرس.

كان الشيخ طه طيب القلب، محبوب بين أهل الشارع، يعشق النكتة، لا يمر بأحد إلا ويقف ليتسامر معه، حتى نساء الشارع كن يسألنه في أمور الدين بلا خجل.

- صحيت من النوم ونسيت إني صايمة، وأكلت طبق محشي وورك فرخة، كده أبقى فطرت يا شيخ طه ؟

- لا طبعا .. كده انتي اتغديتي يا حاجة.

كان يصحبه إلى سرادقات العزاء، والتي يقرأ فيها الشيخ طه القرآن الكريم بصوته الجميل، وفي الأعياد يصحبه إلى المقابر، ليقرأ القران على أرواح الأموات.

مع الوقت، عرف أهل الشارع، ذلك الطفل شريف، الذي يقود الشيخ طه، والذي صار أشبه بعيونه التي فقدها منذ صباه، بعد حادث سقوطه من فوق سلالم مئذنة المسجد.

أحب شريف حياة المسجد، وقرر أن يلتحق بالأزهر الشريف، ليصبح إماماً، يقف على المنبر، يخطب في الناس، فيجلسون أمامه في خشوع ليسمعوا كلماته، كما كان يرى الشيخ طه وهو يقف على المنبر، بملابس الأزهر الشهيرة (الجبة والقفطان).

يخطب في الناس بصوته الجهوري، فيعلمهم أمور دينهم بوسطية دون تشدد، ولا مغالاة، كان دائما يردد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحدُ الا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة، وبشيء من الدلجة).

لكن خطبه لم تعجب بعض المتشددين، الذين كانت تمتليء بهم المنطقة في ذلك الوقت، وكانوا يترددون على المسجد،والذين كانوا يعترضون دائما على خطبه التي تنتقد تشددهم.

- سأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه (أتدرون من الأحمق، فقالوا: من باع آخرته بدنياه، فقال عمر: الأحمق منه، من باع آخرته بدنيا غيره).

حينما بلغ شريف سن السادسة، أصيب الشيخ طه بأزمة قلبية، وتوفى على أثرها، بكى شريف كثيرا على شيخه، وكان يتردد على قبره ليقرأ القرآن على روحه، وبعد وفاة الشيخ طه أهمل شريف ارتياد المسجد ودروس حفظ القرآن،والتحق بمدرسة المنيب الابتدائية، وبمجرد أن دخل المدرسة، حتى أظهر تفوقا على أقرانه، الذين كانوا يحسدونه، ويحاولون إغاظته فيلقون عليه الكلمات الجارحة.

- ورنيش المع.. أبو لمعه جنان..

لكنه رغم صغر سنه، كان يمتلك ثباتا انفعاليا، فلم يَنْسَقْ

وراء كلماتهم الجارحة، بل اعتبرها دليلاً على غيرتهم العمياء من تفوقه، وأصبح شغله الشاغل الاهتمام بدروسه، وحينما وجدوا أنه لا يلتفت لكلماتهم، أقلعوا عنها، بل أحبوه واحترموه، فكان يساعدهم في عمل الواجبات المدرسية، لكنه حينما كان يعود إلى البيت ويدخل غرفته وينفرد بنفسه، بعيداً عن عيون الجميع، يظل يبكي حتى تحمر عيناه.

ما أن كبر شريف وبلغ أشده، ودخل المرحلة الثانوية، حتى مرض حمدان، وبدأ رحلة علاج مع مشاكل القلب التي لا تنتهي، فكان جزء كبير من دخله، تلتهمه فاتورة العلاج، التي أصبحت تشكل عبئا على ميزانية الأسرة، فقرر أن ينزل سوق العمل، لكي يساعد أباه، فعمل في مكتب الأستاذ إسماعيل أبو المجد المحامي، في الفترة المسائية، ينظف المكتب، ويصور مستندات القضايا، ينقل الشاي من البوفيه إلى السادة المحامين في مكاتبهم، فأعجب به الأستاذ إسماعيل، وقربه منه، ونصحه أن يلتحق بكلية الحقوق.

- كلية الحقوق دى اتخرج منها زعماء ووزراء ورؤساء دول كمان.

أحب شريف مهنة المحاماة، أن يرتدي ذلك الروب الأسود ليقف أمام القاضي يدافع عن المظلومين، فقرر أن يدخل كلية الحقوق، وازدادت رغبته تلك، بعدما ذهب إلى المحكمة وراى

القاعة الكبيرة، التي تعقد فيها الجلسات، والمنصة التي يجلس عليها القاضي ليحكم بين الناس بالعدل، تلك اللوحة الكبيرة المعلقة خلف المنصة « العدل أساس الملك « فقرر أن يدخل كلية الحقوق لا ليصبح محاميا بل قاضيا.

حصل شريف على الثانوية العامة، ودخل الجامعة والتحق بكلية الحقوق، ولكنه بمجرد أن شاهد أروقة الجامعة، وحياة التدريس الجامعي، والمكانة التي يحظى بها الأساتذة، حتى قرر أن يكون معيداً في الجامعة، ويحصل على الماجيستير والدكتوراة.

وكانت نجاحاته تدخل السرور على أمه، التي لم تفلح في إنجاب غيره، حيث أصيبت بورم خبيث في الرحم، والذي اضطرت معه، أن تستأصل الرحم، فأصبح شريف هو ابنها الوحيد ورجلها وقرة عينها، فأولته العناية في مساعدته على استذكار دروسه، وتوفير كل ما يحتاج إليه، فالأب يحارب في الشارع للحصول على لقمة العيش، والأم في الداخل توفر سبل الراحة، لزوجها حمدان وابنها شريف.

مرت السنوات وشريف ينتقل من تفوق إلى تفوق، فكان الأول على دفعته طوال الأربعة سنوات، وأصبح الطريق مفروشا أمامه، ليختار ما بين طريقين، إما أن يصبح معيداً في الجامعة، أو أن يسلك سلك القضاء ويصبح وكيلا للنائب العام.

(٤)

ضواحي الجيزة

وقف المترو في محطة ضواحي الجيزة، وفرغ المكان الذي بجواره، التفتت تلك الفتاة التي أعطته ظهرها، لتفتش عن مقعد شاغر، فلم تجد غير المقعد الذي بجوار شريف ترددت قليلا وهي تشعر بالاشمئزار من منظر هذا الشخص الهلامي!، لكنها تعبت من الوقوف، ومن مضايقة رواد المترو لها، والذين يرمقونها بعيونهم الجائعة، بينما حاول البعض الإلتصاق بجسدها.

أقبلت عليه برائحتها، التي تفوح فتنة، وما أن جلست بجواره حتى التصقت بجسده، فشعر ببرودة تجتاح أوصاله، وبدأت النشوة تسري في جسده الضعيف، لكنها لم تعطه الفرصة لإستكمال تلك الجرعة من النشوة، فعدلت من جلستها مبتعدة عنه، وأخذت تتصفح الكتاب الذي بيديها، فلمح اسمه «القانون المدني».

****

ما أشبه اليوم بالبارحة، حينما جلست بجواره أميرة، تلك الفتاة الأرستقراطية، التي طالما حلم أن يقترب منها، أن يصافح يدها الناعمة، أن يحادثها، أن يشعر بأنفاسها تقترب من أنفاسه، لكنها لم تشعر به مطلقا، فلم يحاول الاقتراب منها، إكتفى فقط بالنظر إليها من بعيد، لأنه ببساطة على يقين، بأنه لن ينال إلا التجاهل والصدود، فهناك حائط طبقي يفصل بينهما، فهي تختار من تجالسه بعناية فائقة، الطلبة الأثرياء الذين يقعون في نفس مستواها الإجتماعي، والذين إعتادوا الجلوس في حديقة الكلية، يحتسون المشروبات ويأكلون الأطعمة الدسمة، يرتدون الملابس الفاخرة، يركبون السيارت الفارهة، فتقضى معظم أوقاتها في حديقة الجامعة، وحينما تقترب الامتحانات تعسكر في المنزل، بعد حصولها على أهم المذكرات والمحاضرات والمراجعات، تلتهم الكتب إلتهاما، ثم تحصد الدرجات النهائية.

فجاة ! حدث ما لم يكن يتوقع، حاولت أميرة التقرب منه، وكسب وده، تعمدت الإصطدام به في مدخل الكلية، لكنه تنحى جانبا، ظن أنها لم تكن تقصد، فأسقطت الكتب التي تحملها على الأرض، فانحنى لكي يجمعها، فنزلت لتأخذها ولمست يده، فانتفض جسده.

وقام مسرعا وكأنه قد مسه جان، قلبه يصعد ويهبط، ينبض بشدة، فقامت واقتربت منه، وفتحت معه حواراً ناعما لم يفهم

منه كلمة واحدة، كل ما فعله أن سرح في عينيها، أخذ يقلب بصره بين وجهها الخمري، وشفتيها القرمزيتين، وما أن أنهت كلامها، بأن طلبت منه كشكول المحاضرات، حتى وجد نفسه يعطيها إياه، بدون إرادة منه، فابتسمت ابتسامة المنتصر، دعته أن يشرب معها الشاي، فترك المحاضرة ولبى نداء قلبه، دون أدنى تردد، كيف يرفض ذلك العرض السخي الذي لن يتكرر، لقد واتته الفرصة على طبق من ذهب، ويجب ألا يدعها تمر هكذا.

مرت الأيام والعلاقة تزداد اتصالا، كشكول المحاضرات يصل يدها أولاً بأول، المذكرات تكتب من أجلها، بدأ يتردد على حديقة الجامعة، في محاولة منه للاقتراب من تلك الطبقة المحظورة، في البداية كان يشعر أنها تستغله، للحصول على شرح مبسط للكتب الجامعية، لكنه لم يحرمها رغبتها تلك، لأنه إعتاد ألا يبخل على زملائه، بشرح ما صعب عليهم فهمه، لقد أكد الجميع أنه سيكون أستاذا جامعيا من طراز فريد، فهو يشرح المواد بطريقة سهله مبسطة، أبرع مما يشرحها الأساتذة.

أعجب به الدكتور سعيد البنهاوي، والذي يدرس مادة «القانون الدولي» فقربه منه، وساعده في الحصول على مساعدات رعاية الشباب، ووعده أن يساعده في أن يصبح معيداً، لسبب ذكره له ذات مرة

- إنت طالب مجتهد، وتستحق أن تكون معيداً بجدارة.

أثار ذلك حفيظة بعض الأساتذة، وخصوصا الدكتور عبدالقوي وكيل الكلية، والذي كان يشرح مادة القانون المدني، وكان الطلبة يفضلون الشرح المبسط، والملازم التي يعدها شريف، فأهملوا كتاب الدكتور عبدالقوي، رغم أنه أجبرهم على شرائه، وأهملوا حضور محاضراته، فاشتاط غضبا، وتوعد أن يعطي لشريف درسا لن ينساه.

أرسل إليه بسرعة الحضور إلى مكتبه، وحينما مثُل أمامه، كمذنب أمام ساحة القضاء، وبخه وحذره من أن يحول كتابه إلى كبسولة، يتناولها الطلبة في ليلة الامتحان، وأن ما يفعله بلا وعي، يعلم زملاءه الكسل، ويدفعهم إلى عدم البحث والقراءة، وتوعده أنه لن يسمح له أن يصبح معيدا في الجامعة، ولو على جثته، لأنه سيكون معيدا فاشلا!

عاد يومها إلى البيت مهموما حزينا، وكأنه يحمل جبل المقطم فوق رأسه، شعر أن مستقبله صار تحت رحمة دكتور عبدالقوي، أن كل ما يرنو إليه قد يجرفه تيار العناد، قد يذهب مع الريح، لمجرد أنه لا يعجب أستاذه، لأن ليس له ظهر قوي يستند عليه، لكن والده حاول أن يهون عليه، أن يطمئنه بأن كل شيء بارادة الله.

- شوف انت عما تقول إيه، إسمه عبدالقوي .. مش القوي..

طلب منه الدكتور سعيد البنهاوي ألا يخسر الدكتور عبدالقوي، وأن يلتزم بتعليماته، فهو وكيل الكلية، وله ذراع طولى في مجلس الجامعة، وقد يقف بالفعل في طريق تعيينه معيدا بالكلية، وعليه أن ينحني للريح لكي تمر بسلام.

لم يهون عليه حياته تلك سوى أميرة، التي صارت النسمة الباردة في صيف ساخن جدا، صارت قطرة الندى في صحاري شريف الشاسعة، فمع مرور الوقت إعتاد الجلوس معها، إقترب منها أكثر، تعرف على حياتها، والدها المهندس صلاح عثمان، صاحب شركة مقاولات، ووالدتها السيدة سوزان صلاح الدين، مديرة البنك الأهلي فرع المهندسين.

زارهم في منزلهم، فأدرك ذلك المستوى الاجتماعي الذي تعيش فيه، لاحظ الفرق الكبير جدا بين منزلهم حيث الهدوء والسكينة وذلك الجحر الذي يعيش فيه حيث الزحام والصخب، جلس مع أسرتها الذين تفوح منهم رائحة الراحة والعز، والذين شعروا بالاطمئنان، أن ابنتهم على علاقة بهذا الشاب، صاحب المستقبل المشرق، لكنهم في كل الاحوال لن يسمحوا بأن تتطور تلك العلاقة، أكثر من كونها علاقة زمالة، ستنتهي بانتهاء المرحلة الجامعية، حتى ولو أصبح شريف حمدان رئيسا لوزراء مصر.

كان شريف صادقاً مع نفسه، قبل أن يكون صادقاً مع الأخرين، فلم يخفَ عن أحد حقيقة وضعه الاجتماعي، عمل والده، البيئة التي يعيش فيها، حياة الفقر والجوع والمرض وقلة الحيلة التي تطوق عنقه، لكنه في نفس الوقت، يعلن عن أصله وحسبه ونسبه يحكي عن عائلتة الكبيرة التي تعيش في الصعيد، والتي تمتلك أراضي شاسعة، لكن الثأر بدد كل هذا، وألقى بوالده، في هذه الهوة السحيقة من المجتمع.

كان يعرف حدوده جيداً، فلم يفكر يوما أن يفرض حبه على أميرة، أن يعلن عن رغبته في تطويق قدها الممشوق، أن يحتسي شراب العشق من شفتيها، أن يأخذها إلى القمر، ليجلسان على سطحه، بعيدا عن تلك الأرض التي امتلأت طبقية.

رغم شعوره أن الاهتمام بدأ يتزايد، والحواربات أكثر نعومة، والحديث عن المستقبل المفروش بالورود بدأ يتكرر، بدأ يلاحظ غيرتها، من أي بنت تحاول الاقتراب منه .

تذكر حينما زارته جارته دلال، فجلسا في الحديقة يشربان الشاي، ويتبادلان الضحكات، وحينما انصرفت استوقفته أميرة وكلمته بنبرة غضب

- مين البنت اللوكال، اللى بتجيلك الجامعة دي ؟

شعر ساعتها بالسعادة، لقد بدأ القلب يدق وبشدة، . « لماذا تخبئين العشق يا أميرتي، والشوق فاضحه، فأنا أراك في أخر الطريق، تحملين المشاعل وأطواق الياسمين « .

بدأت العلاقة تخرج من نطاق الجامعة والكتب والمحاضرات، إلى خارج أسوار الجامعة. فكانا يخرجان في المساء. يتمشيان على الكورنيش. يدخلان السينما. تجلس أمامه وتسرح في عيونه. فيغرق في بحر عينيها. يظل طوال الليل يفكر فيها. يكرر حوارهما في عقله عشرات المرات. يغار عليها من نظرات المحيطين بها. يرسمها في خياله بالفستان الأبيض. تحمل باقة الورد الأحمر. تتأبط ذراعه. تحتضنه بشده وتهمس في أذنه.

- إني أعشقك يا شريف.. هلم يا حبيبي. فأنا أنتظرك منذ عصور..

كان شريف على يقين بأن الحصول على أميرة ليس مستحيلا. فبمجرد أن يتحقق حلمه الكبير. ويأتي اليوم الذي يصل فيه إلى طموحه. بأن يفوز بإحدى الحسنيين في دنياد الجامعة أو النيابة. سيتغير مجرى تاريخه. وسينتقل وعائلته إلى الأمام. بصاروخ عابر للقارات. سينتقل من خانة الطبقة الدنيا إلى خانة الطبقة العليا. وسيركل بقدميه كل الماضي الأسود الذي عاشه. وذلك الصندوق الذي يحمله والده رغما عنه. ساعتها ستتمنى أميرة أن ترتبط به. وسيجلس أمام عائلتها وقامته تعانق السحاب. ليطلب يد أميرته الحسناء. ويطيران بعيدا إلى القمر. حيث لا يوجد سوى أميرة وشريف.

(٥)
فيصل

أفاق من جديد، لكن هذه المرة ليس على صوت مكابح المترو، ولكن على صوت الهاتف النقال، الذي تحمله هذه الفتاة التي تجلس بجواره.

- أيوه يا عصام.. والله فاكرة إن فيه امتحانات النهارده .. ومش إجازة عيد الشرطة.

أنهت المحادثة، ونفخت في الهواء وهي تتمتم بعبارات، تعبر عن ضيقها من هذا الشخص الذي كانت تحادثه.

وقف المترو في محطة فيصل، وركب شاب طويل القامة، أبيض الوجه، ناعم الشعر، بعيونه الواسعة، وأثر النعمة تبدو على هيئته وملابسه، يحمل في يده نظارة شمسية، وعلبة من السجائر (المارلبورو)، وبيده الأخرى هاتفه النقال، ما أن رأته حتى تهلل وجهها، واحمرت وجنتاها خجلا، إقترب منها وسلم عليها.

- خلاص آخر يوم في الامتحانات. تعبت السنة دى أوى.ولا دخلت ولا محاضرة هههه!

- ولو حضرت هافهم حاجة.. المحاضرات بتيجي لحد عندي.. ما انتي عارفه إني مظبط الواد عصام الدحيح. نظير اني فاتحله حساب في البوفيه. بيأخد منه اللي هو عايزه.. احنا فاضيين للكلام الفاضي ده هههههه

- أيوه يا عم.. شركة بابا ..

- مش هتحضري حفلة عيد ميلادي الخميس الجاي

- ما أنت عارف إن بابا معاه خط سيرى أول بأول.. معلش السنة الجاية بقه..

نظر حوله فوجد مكانين شاغرين، فأشار اليها أن تنتقل معه ليجلسا بجوار بعضهما البعض، فقامت معه، وتركت المقعد الذي بجوار شريف، الذي شرع يرمقهما في حسد.

- « لماذ دائما الأغنياء يحصدون كل شيء بسهولة ؟!. الدنيا طلوع بنانهم. يشترون بأموالهم الشهادات والمناصب والصحة والحب والسعادة.. »

****

ما زال يذكر، حينما كان يجلس في حديقة الكلية وبجواره أميرة، بوجهها الخمري وعيونها العسلية، تتابع ملامح وجهه الأسمر، وهو يشرح لها مادة القانون المدني. حينما قدم عليهما هشام السمان،

ذلك الولد الثري، الذي إعتاد أن يشتري كل شيء بأمواله.. المحاضرات..الصداقة ... المصالح .. البنات .. كل شيء.

ما أن رآهما هشام حتى شعر بالغيرة، فحاول أن يستفز شريف، ليضعه في حجمه الحقيقي، ونسى أباه سلطان السمان رجل الأعمال، الذي تضع الصحافة حوله علامة استفهام كبيرة، والسؤال الذي يتردد في أوساط المجتمع المختلفة، من أين له هذا ؟!

فماضي عائلته دون الصفر، سلطان السمان، كان موظفاً صغيراً في ميناء بورسعيد، وتم فصله من العمل، لاشتراكه في عملية دخول لحوم فاسدة إلى البلاد، فقدم إلى القاهرة، وبدأت تظهر أمواله، التي جمعها من أعماله غير المشروعة، وفتح مكتبا للاستيراد والتصدير بوسط العاصمة، وخلال عدة سنوات أصبح غولا من غيلان الاستيراد، وبمرور الوقت حصل على عضوية مجلس الشعب، والتي أصبحت ستاراً، يمارس خلفه أعماله غير المشروعة، فبدلا من أن يخدم الناس الذين اختاروه ليمثلهم في البرلمان، أصبح يطعمهم لحوماً فاسدة، وقمحا مسرطنا، ويسرق أراضيهم، ويبدد ثرواتهم، فبات نموذجاً حياً، لما عرف بالزواج العرفي بين المال والسلطة.

أما حمدان، فترجع أصوله إلى عائلة عريقة في الصعيد، لكن الظروف إضطرته أن يأتي إلى العاصمة، أن يعمل ماسحا للأحذية، ليمسح الأوساخ العالقة في أحذيتهم، لتبدو أجمل، ينحني ليأكل من حلال يده، لم يسرق أو يخدع الآخرين.

- « هل عرفت الفرق بين حمدان ماسح الأحذية وأبيك سلطان السمان يا هشام ؟!» .

شعرت أميرة بالحرج من أسلوب التجريح الذي يستخدمه هشام باحترافية، من ذلك الصمت الرهيب الذي خيم على شريف، من صبره وقلة حيلته، وتلك الدمعة التي تحاول أن تفر من عيونه، لتنهش لحم وجه هشام، من تلك الصرخة المكتومة في قلبه، تريد أن تضرب هشام كطوفان، لكن ما يقوله هشام ليس كذبا، نعم والده يمسح الأحذية.

قررت أميرة إنهاء تلك المهزلة، فطلبت من هشام الانصراف، لكنه إستمر في تغريد هذه الأسطوانة الساذجة، التي تنم عن مدى الحقد والكراهية بداخل قلبه ، سحبته من ذراعه، واتجها معا إلى بوفيه الكلية، ورآها شريف من بعيد وهي تعنفه، تصرخ فيه، توبخه،

تطلب منه أن يكون رحيما بمشاعر الآخرين، فالأموال ليست كل شيء، هناك مقاييس أخرى للمقارنة بين البشر، لكن ضعاف العقول يضعون الأموال أساسا للمقارنة.

- عيب كده يا هشام، الشغل مش عيب، وشريف إنسان مهذب، وكلها شهور ويبقى معيد في الجامعة، أو يتعين في النيابة، انت ناسي انه أول الدفعة تلات سنين.

- معيد إيه ونيابه إيه ؟ إنتي ناسيه إن الدكتور عبدالقوي حطه في دماغه، وأقسم بالله انه هيمنعه يبقى معيد، والنيابه استحالة طبعا، انتي ناسيه أبوه شغال ايه .. ألمع ورنيش ألمع.

نظرت إليه أميرة في غضب. إلى هذه الدرجة مشاعر الناس ليس لها قيمة. هذا المتفوق الناجح. يداس هكذا بالأقدام كحشرات الأرض.. تبا لهذا المجتمع الذي قسم الناس إلى طبقات متفاوتة. لكنها أفاقت على صوت هشام يكمل:

ج

- إيه روحتي فين ؟!

- وانت ناوي على إيه بعد التخرج ؟

- ما إنتي عارفه..

سرحت أميرة وهي تقارن بين هشام. الواقف أمامها برائحته. التي يفوح منها المستقبل المضمون. الثراء والراحة إلى يوم يبعثون. وإلى شريف المتكوم هناك على المقعد. والذي تفوح منه رائحة المستقبل المظلم. والفقر. والشقاء إلى يوم يبعثون!

ماذا سيجني من تفوقه ؟ سيعمل حتماً في نهاية المطاف. في مكتب أحد المحامين في تلك المنطقة العشوائية التي يقطنها. لن يصل إلى حلمه أبداً.

أفاقت على صوت هشام. الذي بدأ يلمح أنه معجب بها. وأنه دائما التحدث مع أمه عنها.ابتسمت وهى تحاول أن تخفي خجلها. خلف ستار من التجاهل. نظرت إلى المقعد الذي يجلس عليه شريف فوجدته شاغراً. فنظرت إلى ساعتها. وصرخت في هشام. وهي تضربه على كتفه. كنوع من الهزار المقبول...

- يخرب عقلك .. المحاضرة.

(٦)

جامعة القاهرة

وقفت العربة على رصيف محطة جامعة القاهرة، لمح البنت التي كانت تجلس بجواره، والولد الذي كان معها، يقومان ويتجهان ناحية الباب يستعدان للنزول، والابتسامة لا تخلو من حوارهما، الذي لم ينقطع طوال فترة جلوسهما، لمح يده تمتد لتمسك يدها، لتتشابك الأيادي، ليبدأ في عصرها، وهي مستسلمة وسعيدة، حتى فُتح الباب، فتركت يده وسبقته في النزول فتبعها، وشرعا يسيران على رصيف المحطة، وقفا تحت لوحة "جامعة القاهرة" نظرا حولهما، ثم انصرفا معا، واختفيا وسط زحام الرصيف.

****

تذكر يوم إعلان النتيجة "الأول على الدفعة" كالمعتاد.. ما زال كلام هشام السمان يرن في أُذن أميرة، عن تلك المقارنة الطبقية بينه وبين شريف حمدان.

الآن كل شيء بات واضحاً. لم تعلن الكلية عن حاجتها لمعيدين جدد رغم حاجتها. لقد أنجز دكتور عبدالقوي وعده، وضاع أمل شريف أن يصبح معيدا..

في ذلك اليوم الأسود، لم يفقد شريف فرصة أن يكون معيدا بالجامعة فقط، بل فقد أميرة أيضا. شعر بأن مشاعرها باتت باردة، لم تعد أميرة التي كانت تشاركه الأحزان، تأخذ بيده في تلك المواقف الصعبة، تشجعه على المضي قدماً إلى طريق التفوق، تطمئنه بأن الطريق ما زال مفروشا بالورود، وفي نهاية الطريق، تقف هي بفستانها الأبيض لتضع على رأسه أكاليل الغار.

ظل يحادثها عن الظلم الاجتماعي والطبقي الذي تعرض له، عن مستقبله الذي تم فرمه بلا رحمه، لكنها ظلت صامته، لم تشاركه حواره، لم تبادله مشاعره الحزينة، لم تمسح دموعه، لسبب بسيط إنها كانت تعرف النتيجة مسبقا، شريف ليس له مكان على خشبة المسرح، فالأدوار تم توزيعها ببراعة، فليرحل إلى منطقته العشوائية التي يسكنها، ليمثل دوره الذي رسم له في الكواليس.

ما كان يشغل بالها، هو كيفية الخروج من المشهد بأقل الخسائر، كيفية الهروب إلى الأبد. بمنتهى الهدوء سحبت حقيبتها وخرجت من المشهد، رآها تركب سيارة هشام السمان، الذي كان ينتظرها أمام باب الجامعة، والسعادة وروح النصر، يظهران على ابتسامته وملامحه الفارغة.

لقد رحلت أميرة وتركت شريف شاردا وحيداً. يكاد أن يُجن. كل شيء ضاع في لمح البصر. تركته بمفرده على ذلك المقعد الخشبي بحديقة الجامعة. وبجواره كوبان من الشاي البارد. تركا ليعبث بهما الذباب !

***

عاد شريف إلى البيت. يحمل تلك الخيبة التي أضاعت كل شيء. عاد إلى عادته القديمة. التكوم في غرفته. رافضاً التحدث مع أحد. رافضا الطعام والشراب.

شعر الأب بالذنب. ما كان يجب أن يترك الصعيد. ويأتي إلى ذلك السوق الكبير. ما كان يجب أن يعمل بتلك المهنة. حتى لا يصبح ابنه معيرة بين زملائه. لم يفلح طريق العلم الذي رسمه..

- أكان يجب أن يلعق حذاءك يا سيدي. لكي تقبل أن يصبح معيدا ؟!.

حاول حمدان أن يرفع من معنوياته. يحفزه أن يستمر قدما في طريق مستقبله. فالطريق ما زال مفروشا بالورد. الأحلام لم تنته بعد. شريف ما زال في ريعان شبابه. وبكامل صحته وتأنقه. والمستقبل ما زال أمامه. يجب أن يتحلى بالصبر. أن يسعى فقط. ويترك على الله تحقيق الأماني.

- إن كان مليكش حظ في شغلانة الجامعة دي. معاد مقابلة النيابة قربت. وأنا قلبي حاسس إن ربنا هيعوضك خير. إن شاء الله.

رأى شريف في عيون والده دمعه حاول إخفاءها، فاحتضنه بقوة، ولم يحتمل حمدان ذلك الحضن الدافيء،شعر بمدى الحزن الذي يعتصر قلب ابنه، فشريف هو الذي يدفع الآن فاتورة هروبه وضعفه،لم يستطع اعتقال دموعه في أحداقها، تكورت الدموع وهطلت كأمطار شتوية ثقيلة، وهو يحادث نفسه، لو بقي في الصعيد، لشفع له تاريخ وثراء عائلته، لكنه خشي الموت وهرب كجبان ضعيف، يا ليته ما هرب ولا جاء إلى هنا..

جاء يوم المقابلة الشخصية، ارتدى شريف البدلة التي اشتراها له والده، استعدادا لهذا اليوم،وقف أمام المرآة يرجل شعره، ملامحه وابتسامته ووقاره، يرسمان عليه المنصب، كل شيء مناسب، درجته العلمية، ذكاؤه، لباقته، سرعة بديهته، ملابسه، أناقته، كل شيء يؤهله للحصول على هذه الوظيفة، التي ستنقله وتنقل عائلتة وبلا أدنى شك إلى الأمام،إلا ذلك الشيء الذي يعاني منه،الفقر والوضع الاجتماعي،مهنة والده ماسح الأحذية.

لم يخرج حمدان إلى عمله في ذلك اليوم، ظل حبيس البيت بجوار زوجته، والحزن يخيم عليهما، رفض أن يتناول طعام الأفطار، أن يأخذ علاج القلب، رغم إلحاحها الشديد، بدأ يشعر بالتعب، القلب ينبض بشدة، ضغط الدم بدأ يتهاوى، شعور

عام بالضعف وقلة الحيلة، ما زال يكرر، أنه أخطا حينما ترك الصعيد، والأم تهون عليه، كان ينتظر أن يدخل عليه شريف، بابتسامته التي حرم منها على مدار شهور، ليعلن أنه قد إجتاز إختبار كشف الهيئة، لكن كيف، فأين جواب التوصية ؟ الذي كان يجب أن يكون في جيب ابنه شريف، لكي يمر بسلام..

- " النتيجة محسومة يا شريف لماذا ذهبت ؟!".

دخل شريف عليهما، كنسمة صيفية ساخنة، يكاد يغلي من الغضب، لم ينتظر حتى يسأله حمدان عن النتيجة، كان يعرف السؤال فبادره بالاجابة، دخل وكأنه يقف على خشبة المسرح، وأمامه جمهوره الذي ينتظره، ليقدم عرضاً مسرحياً سخيفاً.

- والدك بيشتغل إيه يا شريف ؟

- ماسح أحذية يا فندم..

- طيب اتفضل

- أفهم من كده إيه سيادتك ؟

... لا يوجد رد... إشارة باليد.. تعني أخرج بره يا ابن ال...

لم يستطيع أن يتم الكلمة فوالده ليس كذلك، والده رجل شريف، لم يطعمه يوما من حرام، رفض أن يخالف القانون، ويقتل من قتل أخاه، رفض أن يسرق، أن يمد يده ليشحذ لقمة العيش، لقد مسح الأحذية، لكنه لم يلعق أحذية الكبار، لكي يحصل ابنه على حقه !

." أكان يجب أن يلعق حذاءك يا سيدي، لكي تدخله سلك القضاء ؟!..

ما أن انتهى شريف من العرض المسرحي الذي قدمه ببراعة، حتى دخل في نوبة من البكاء الشديد، لقد ضاع كل شيء، الجامعة وأميرة والنيابة، لم يتحمل حمدان ذلك المشهد القاسي، شعر بدوار في رأسه، انخفاض في ضغط الدم، وسقط على الأرض بالضربة القاضية، كملاكم على حلبة الملاكمة، وشريف لا يزال على خشبة المسرح، صنعت الدموع أمام عينيه غيمة بيضاء، فلم يرى جمهوره، لم يرَ أباه وهو يترنح ويسقط على الأرض، لم يفق الا على صوت أمه تصرخ وتولول، تسحبه من ذراعه، لتوقفه من الاستمرار في أداء دوره، وتسحبه من فوق خشبة المسرح إلى الصالة..

- إلحق أبوك يا شريف.

(٧)
البحوث

وقفت العربة في محطة البحوث، نظر في ساعته، فوجدها تقترب من العاشرة والنصف صباحا، فتح الباب، ودخل رجل في حوالي الخمسين من عمره، يبدو عليه الإعياء الشديد، يسنده ابنه، يبحث له عن مقعد شاغر، فأجلسه بجوار شريف، كان الرجل يأخذ أنفاسه بصعوبة وكأن روحه تحاول الصعود إلى السماء، ولكن لم يحن وقتها بعد، فأخرج له ابنه برشامة ووضعها تحت لسانه، فبدأت أنفاس الرجل تهدأ، غير أنه لمح بقعه من المياه ظهرت على جلبابه، فشعر ابنه بالحرج، فأخذ يقلب في الإشاعات والتحاليل وأوراق العلاج التي يحملها، رن هاتفه النقال فقبل المحادثة:

- أيوه يا أمي .. رفضوا يعملوا العملية على نفقة الدولة..

إلتفت شريف إلى النافذة، فلمح رجلاً مسناً يجلس على رصيف المحطة، يفرد جريدة قومية، ورأى مانشيتاً عريضاً،

وتحته صورة سلطان السمان (سفر رجل الأعمال وعضو مجلس الشعب البارز، سلطان السمان إلى خارج البلاد، لإجراء جراحة عاجلة في القلب على نفقة الدولة)

****

جرى شريف نحو حمدان، يحاول أن يسعفه، أن يلقي في فمه ببعض حبات الدواء، التي كتبها له طبيب القلب، لكنه فشل أن يعيده من الغيبوبة، حمله على كتفه، إلى خارج البيت وفي أول سيارة أجرة، ركب الجميع إلى المستشفى العام.

. ماذا جرى لك يا حمدان، صرت كهلا عجوزا، أين صحتك وشبابك، كنت في قريتك كالأسد، تأمر فتُطاع، من أخرجك من عرينك لتموت هنا هكذا، كما يموت البعير !.

كان الأب في حالة يرثى لها، وجهه أصفر كالليمون، والعرق يبلل جبهته، وفمه مفتوح، وكأنه يريد أن يصرخ، يبلع ريقه بصعوبة وعيناه زائغتان، ويداه ترتعشان، وشريف يحتضنه، يقبل رأسه، يعتذر له.

- « لا لم يسبك يا أبي.. أنت أشرف من الجميع» .

دخلوا من باب المستشفى، ومنه إلى غرفة الاستقبال، وتم عمل رسم قلب، وتم تشخيص حالته، جلطة في القلب، ويحتاج إلى دخول العناية المركزة وبصورة عاجلة، لعمل قسطرة عاجلة في القلب، لكن العناية المركزة بالمستشفى ليس بها سرير شاغر.

توسل شريف إلى الطبيب الواقف بجواره، واضعا يده في جيوب سترته البيضاء الطويلة، والسماعة تتدلى على صدره، أن ينقذ والده، أن يحاول أن يعيد إليه بعض أنفاسه، لكن الطبيب أكد أنه لا يوجد سرير في غرفة العناية المركزة، ويجب عليهم الإسراع بالدخول به لأحد المستشفيات الخاصة، فتش شريف في جيوبه، يبحث عن نقود، فكان كل ما يملتكه، لا يتجاوز المائتي جنيه.

عاد بخيبة أمله إلى الطبيب، يتوسل إليه بأن ينقذ أباه، فليس لديهم ما يدفعونه لدخول مستشفى خاصة، فتركه دون أن يرد، فقط أشار بيديه إشارة تدل على قلة الحيلة.وتوجه إلى الغرفة المجاورة، ليفحص حالة جديدة، دخلت للتو إلى المستشفى..

كان الأب متكوما على سرير قسم الاستقبال بلا حراك، استسلم لقضاء الله وقدره، استسلم لمصيره، لأنه ببساطه لا يملك ثمن علاجه، ينتظر ملك الموت أن ياتي، ليسحب الروح وتنتهي القصة، والأم تبكي بجواره، تنعي قلة الحيلة، حمدان ينازع الموت، صارت روحه أشبه بورقة في مهب الريح، تنتظر رحمة الله، لكي يبقى على قيد الحياة، وشريف يصرخ فيهم أن ينقذوا أباه الذي يموت.

لمح إحدى الممرضات، والتي كانت تقف لتتابع ما يحدث، ويبدو عليها التأثر من منظر حمدان وهو منبطح على السرير،

فأشارت إلى شريف المنهار بجوار والده، فأقبل عليها بسرعة وكأنه وجد طوق النجاة، فسحبته بعيدا عن أعين الجميع.

- اسمع يا أستاذ، شيل أبوك على كتفك، واطلع بيه السلم ده، العناية فيها سرير فاضي ما تصدقش ولاد الكلب دول.. أدخل وحطه على السرير، وهما غصبن عنهم هيعالجوه.

نظر اليها شريف، وهو لا يدري ماذا يفعل، لكنه قرر أن ينفذ ما أشارت به، حمله على كتفه كطفل صغير، وصعد به درجات السلم، متجاهلاً تحذيرات الجميع.

- رايح فين يا أستاذ؟

كل ما كان يشغل باله، أن يصل إلى غرفة العناية المركزة، ويبحث عن ذلك السرير الشاغر، يضرب بجسده أي شخص يعترض طريقه، حتى وصل إلى غرفة العناية المركزة، وخلفه أمه الواهنة، بجلبابها الأسود الفضفاض، ضرب الباب بقدمه، ففُتح بسهولة، فوجد السرير أمامه، هرع نحوه، وبقوة وضع والده عليه، وفرد رجليه، وعدل من ملابسه، وأسند رأسه إلى الوسادة، وحمدان مستسلم بعيونه نصف المفتوحة، ينظر إلى شريف، وكأنه يعتذر اليه، تهطل من عيونه التائهة دمعة، وشريف يقبل رأسه، ويمسح قطرات العرق المتناثرة فوق جبينه، وأمه تبكي وهى تقبل يده، تجلس تحت قدميه وتبتهل

إلى الله أن ينقذه. دخل الطبيب، وخلفه رجال الأمن، والذين أمسكوا بشريف فصرخ فيهم

- انقذوا والدي، وأنا مستعد لأي عقاب، إن كنت مذنب !

- يا أستاذ شريف إفهم، والدك محتاج لعملية قلب مفتوح.. والمستشفى مفيهاش أي إمكانيات.. فهمت..

- طيب إسعفوه.. أنقذوا ما يمكن إنقاذه..

كان حمدان يشهق، وهو يخرج أنفاسه الأخيرة، ينادي على شريف،الذي هرع نحوه، أمسك يده، أهداه دمعتين من عيونه الغائرة، تمتم باسمه، طلب منه أن يحافظ على أمه، ثم سمعه يلفظ الشهادتين، يفرد يده الفارغة، يلقي برأسه على الوسادة، يبتسم ويرحل في صمت، يسكت إلى الأبد، وسعاد تبكي وتصرخ، تنادي عليه، تتشبث بملابسه، تحاول إستدعاء روحه من جديد، والتي صعدت إلى يوم يبعثون.

- « أكان يجب أن يلعق حذاءك يا سيدي، لكي تنقذ أباه من الموت؟!» .

(٨)
الـدقـي

وقفت عربة المترو في محطة الدقي، نزل بعض الركاب وصعد آخرون، لكن ما لفت انتباهه تلك السيدة نحيفة الجسد، والتي ترتدي جلباباً أسود فضفاضاً، والتي ما إن دخلت، حتى وقفت في منتصف العربة، ترمق الركاب بعيون حزينة باكية، تمد يدها، وتشتكي من ضيق الحاجة، لقد مات زوجها، ولا تجد ما يسد رمقها، ورمق أطفالها الصغار، لا تجد من يحن عليها وعلى عيالها، بعد أن مال الدهر عليها، ما أن اقتربت منه، حتى مد يده في جيوبه شبه الخاوية، وأخرج عملة ورقية، ووضعها في يدها، وهو يحدق في عيونها السوداء الواسعة، فتذكر عيون أمه التي إمتلأت حزنا بعد وفاة أبيه .

****

بعد رحيل حمدان، لم تعد أوضاع البيت على ما يرام، لم يعد هناك دخل تعيش عليه الأسرة طوال تلك الفترة، كانت

الأم تنفق من الأموال، التي تبقت مما تركه حمدان، مدخراته القليلة، التي لن تكفي بأي حال من الأحوال، الإنفاق على الأسرة لعدة أسابيع، لقد صاروا عرايا بعد رحيله، بعدما سقط الجدار الذي كانوا يحتمون خلفه .

بدأ شريف يغمض عينيه عن تلك المساعدات، التي بدأ يقدمها أهل الشارع، من سلع تموينية، وبقايا طعام، بدأ يدرك بأن والده، كان يحمل عبئاً كبيراً، لم يشعره يوما بالحاجة إلى الآخرين، بل إن خيره كان يفيض، ويعطي منه إلى جيرانه، لم يخشَ الفاقة أبدا، كان دائما يردد

- الناس لبعضيها.. يا أم شريف

شعر بالحرج، من نظرات أهل الشارع إليه، أين تلك الوعود الوردية، التي كانت تملأ حياته، هل أصبح معيداً في الجامعة، هل صار وكيلا للنائب العام، كما كان يدعي، هل صار محامياً مشهوراً، لم يصبح أي شيء، حتى ذلك الطفل حسين ابن جارتهم مرزوقة بائعة الخضروات، طالب المرحلة الاعدادية، الذي كان يتخذه قدوة، يسير على خطاه، أهمل دروسه، بعدما كان متفوقا، ماذا سيجني من التعليم، لا شيء !

حتى دلال إبنة الجيران، التي كانت تحاول دائما التقرب إليه، إقامة أي علاقة معه، حتى ولو كانت غير مشروعة، تتردد على بيتهم لأتفه الأسباب لدرجة أنها كانت تختار الأوقات التي

يكون فيها بمفرده، تطلب منه أن يشرح لها بعض دروس اللغة الإنجليزية، تسأله عن معاني بعض الكلمات الاباحية، ترسم قلوبا حمراء، على صفحات الكتاب وعليها حروف اسمه، فيحمر وجهه خجلا، فتضحك وتهكم على عذريته، تقترب منه أثناء الشرح لتلتصق بجسده، تضحك في وجهه باغراء، تلامس يده فيرتعد قلبه.

ذات مرة أمسكت يده، فحاول أن يتملص منها، لكنها تشبثت بها، وأبت أن تتركها، واقتربت بوجهها نحو شفتيه، شعر أن نبضات قلبه تتسارع، وأن جسده يرتعش، وكأن ماساً كهربائياً قد أصابه، فَشَلهُ عن الحركة، لم يشعر إلا وهو يطبق شفتيه على شفتيها، يمطرها قبلا، يتحسس جسدها الطري، يحتضنها بعنف، و...

لكنه أفاق فجأة، على صوت المفتاح، يُضرب في باب البيت، وصوت أمه يقتحم خلوتهما، والتي ما أن دخلت حتى لاحظت، أن شيئا ما قد حدث، شعر الاثنان بالارتباك، فما كان من دلال، إلا أن انصرفت وبسرعة، وهي تلملم أشيائها، وتعدل من هيئتها.

- طيب أمشي أنا بقى.. عندي درس، ولو أخرت المستر هيطردني.. سلام يا حاجة.

نظرت إليها الأم في ارتياب، ورمقتها بغضب، وهي تعدل من ملابسها، وتتأمل ملابس ابنها، التي ابتلت عرقاً، وحمرة الخجل تلون وجهه، وبقايا قبلاتها تلون خده.

- البت دى ما تجيش هنا واصل.. فاهم يا ولدي.. إنت وراك مستقبل واعر.. ولازم تنتبهله صُحْ..

شعر بالخجل، وهو ينصرف من أمام أمه، لم يستطع أن يبرر موقفه، ماذا سيقول، فإغراء دلال لا يقاوم، تجبره على المضي قدما في ممارسة تلك العلاقة بشغف، لقد أذاقته طعم العشق بطريقة غير معتادة، إنه نوع جديد من العشق، يختلف عن عشقه لأميرة، تلك الطاهرة التي يعاملها على أنها ملاك قادم من كوكب الجنة..

خرجت دلال من البيت ومن يومها، مُنعت من دخوله، لكنها كانت تنتظره في الشرفة، في مدخل الشارع، يتقابلان في بير السلم، تذهب إليه في الجامعة، يتواعدان في المتنزهات، فتمطره قبلا، كما تمطره هدايا، حتى تلك الساعة (الكاسيو)، التي تلف معصمه، كانت إحدى هداياها.

الآن لم تعد تأتي ! لم تعد تشعر به، وهو يمر أسفل شرفتهم، لم تعد تطلب وده، لم تعد تطارده في كل مكان، لم تعد تشتاق إلى جسده كما يشتاق إلى عشقها، لقد رحلت كما رحلت أميرة من قبل، مع أول رسوب له، في اختبارات الحياة.

فكر أن يبحث عن عمل، يدر دخلا يساعد به أمه، ليرحمها من مد يدها، يقوم بدور رجل البيت، حمدان لم يعلمه أن يترك أمه هكذا، ظل يعمل حتى لقي ربه. لكن ليس لديه الرغبة في العمل، ظل حبيس البيت، يلعن الظروف، الفقر، الظلم الاجتماعي.

«أليس هناك عملٌ يليق بك ؟! سوى أن تعمل في الجامعة أو النيابة يا شريف !».

فكر أن يقبل العرض المقدم من الأستاذ إسماعيل أبو المجد المحامي. فالرجل قد كبر سنه. ويريد من شريف أن يشاركه العمل في المكتب. فليس لديه من الذرية غير ابنته مرفت. التي تعمل معه في المكتب. لقد رأى في شريف مشروع محامي من طراز فريد. كم من القضايا المعقدة. التي فك شريف طلاسمها بسهولة.

لكن شريف لم يعد لديه الرغبة في العمل في المحاماة. أن يدخل قاعة المحكمة. ويرى المنصة المكتوب خلفها « العدل أساس الملك «. لكنه لابد أن يعمل من أجل أمه. تلك المرأة التي باعت حياء وجهها. من أجل أن تسد جوعه. فقرر أن يقبل العرض وبسرعة.

فى الصباح الباكر. إرتدى ملابسه. هندم نفسه. رجل شعره وعطر ثيابه. ليذهب إلى مكتب الأستاذ إسماعيل. فتح باب البيت. فوجد ساعي البريد. يقف أمامه بابتسامته العريضة. ليخبره أن له خطاب من محكمة المنيب. أخذ الخطاب وفتحه. وهو في حالة من الإندهاش. إنه خطاب تعيينه في المحكمة. نظر إلى الخطاب. وهو يسأل نفسه:

- كيف حدث هذا ؟

إنه لم يقدم أي طلبات ليحصل على تلك الوظيفة، إلتفت إلى أمه الواقفة بجواره، تزغرد من الفرحة، شعر بأن الخبر لم يصبها باندهاش، وكأنها كانت تنتظره، أو قد تكون هي من قدمت أوراقه، أكمل قراءة باقي الخطاب.

.. لابد من حضوركم غدا إلى مقر المحكمة، ومعكم أصول المستندات الخاصة بكم...

هرع إلى المحكمة وقدم أوراقه، لكنه صدم حينما عرف أن عمله سيكون كاتبا، يجلس ليكتب محاضر الجلسات، التي يديرها وكيل النائب العام مع المتهمين، فكر كثيرا في الرفض بل الهروب. بعد أن كان حلمه أن يصبح وكيلاً للنائب العام، يجلس ليكتب ما يمليه عليه وكيل النائب العام، كأنه في حصة إملاء !

لكنه تذكر الفرحة التي علت وجه أمه وهى تزغرد، حينما رأت خطاب التعيين. كما تذكر أيضا نظرة الحزن التى تغطي وجهها، وهي تتلقى النفحات التي يقدمها أهل الشارع إليهم، لكي يستمروا في الحياة، فقرر أن يقبل الوظيفة.

كان وكيل النائب العام، حسام بك مهران، رجلاً بمعنى الكلمة، استمع إلى قصته، فقدم إليه إعتذارا، وقبل رأسه، وكأنه هو من ظلمه، حاول أن يعطيه جرعات من الأمل، إن السعادة ليست في المنصب أو المال، السعادة الحقيقية في الرضا بقضاء الله وقدره.

مع الوقت حدث تقارب فيما بينهما، كان يأخذ رأيه في كل شيء يخص العمل، ويستشيره في أموره الخاصة ويأخذ بنصيحته، لم يشعره يوماً، أنه كاتب يجلس بجواره، ليملي عليه التحقيقات مع المتهمين، لكن اعتبره زميل عمل.

كان كريماً أشد الكرم، كم أغدق عليه الهدايا والعطايا، لدرجة أنه زارهم في البيت وقبل يد أمه، وكان تواضعه سببا في إزالة كل تلك الجدران الفولاذية التي صنعها المجتمع .

- تعرف إن جدي كان بيشغل شيال في محطة مصر، لكن من حسن حظ والدي انه حصل على ليسانس الحقوق بعد ثورة يوليو، واتعين في النيابة، وأنا رغم ان والدي بيعمل في سلك القضاء، كنت مجتهد في دراستي، وكنت من أوائل الدفعة كمان. ليه ما بتفكرش تكمل دراسات عليا ماجستيرودكتوراه، ده هيفتحلك الطريق إنك تكون أستاذ في الجامعة.

- الظروف صعبة، وبصراحة نفسي اتسدت..

- أنا ابن عمي، عميد كلية الحقوق جامعة حلوان، ممكن أكلمه يساعدك في الموضوع ده، ما تخافش لو احتاجت أي حاجة.. إحنا أخوات..

شعر شريف بالسعادة، لقد أعادت هذه الكلمات الصغيرة، الحياة له مرة أخرى، لقد فكر جدياً أن يستكمل الدراسات

العليا، شعر بأن حسام أخاه الذي لم تلده أمه، زاره يوما في شقته في المهندسين ورأى زوجته، سيدة جميلة، وجهها أبيض مستدير،ابتسامتها رائعة، وصوتها رقيق، ما أن رأته حتى ابتسمت في وجهه وكأنها تعرفه .

- انت بقه شريف، اللي حسام مصدعنا بيه ليل نهار...

ابتسم حسام وهو يأخذ منها كوب العصير، ويقدمه إلى شريف

- والدته كمان ست طيبة أوي، ربنا يديها الصحة.

شعر شريف برجولته، وهو يتقمص دور حمدان، يضع يده في جيبه ليخرج لأمه مصاريف البيت، لقد عاد البيت لسابق عهده، أقلعت الأم عن مد يدها لتحصل على ما تبقى من أفواه الجيران، بل عادت توزع عليهم خير ابنها شريف، وعادت دلال تزور بيتهم من جديد، لكنه تعلم الدرس جيدا، من يخرج من حياته لا يعود، أصبحت الزيارات باردة، حتى محاولاتها القديمة لاغراءه، لم تعد تجدي، لقد شبع منها ومن زيفها، لقد أنهت دراستها، ولم يعد هناك مبرر للزيارة، والآن أصبحت تفتش عن عريس، لكن بأي حال من الاحوال، لن يكون هو!

حاول أن يتقبل حياته الجديدة، يقبل العمل بأي وظيفة تدر أموالا، تنعش دخل الاسرة، لكي تعود لسابق عهدها، فلم يكتفِ بتلك الوظيفة، بل عاد للعمل مع الأستاذ إسماعيل أبو المجد

المحامي، يكتب العرائض ويفحص القضايا ليقف سعادته ويترافع أمام القضاء ويحقق الشهرة، لكنه رفض أن يعمل في القضايا التي يتأكد أن أصحابها مذنبون، رفض أن يدافع عن رجال الأعمال، تاجرو المخدرات، المرتشون، و....

حتى دب الخلاف بينه وبين أستاذ إسماعيل، حينما عرض عليه قضية، متهم فيها أحد رجال الأعمال الكبار، باتجاره بالمخدرات، رأى شريف أنه مذنب، ويستحق العقاب، ولا يجب أن يدافع عنه، لكن إسماعيل طلب منه أن يجد له ثغرة في القضية.

- القضية فيها ثغرة،واضحة زي الشمس،بس مقدرش أساعد مجرم،إنه يفلت من العقاب
- مش شغلتنا إننا نحقق العدالة، شغلتنا إننا ندافع عن الموكل علشان نقبض منه الأتعاب، ولو القانون مفيهوش ثغرات عمرنا ما هنشتغل.
- مقدرش أخالف ضميرى، ولو مش عاجبك، أنا آسف بأعتذرعن الشغل مع حضرتك
- إنت فاكر إني مش هقدر أخرجه من القضية، الثغرات مش في الورق وبس، الثغرات في الأشخاص كمان، يعني بإجراء بسيط، أقدر أغير الهيروين، ببدرة تلك، وهيطلع زي الشعرة من العجين، بس هيكلفني شوية، طيب ليه طالما في حل سهل ورخيص.

- بص في تاريخ إذن النيابة، هتلاقيه بعد عملية القبض على المتهم.

شعر شريف بالاشمئزاز.اللصوص وتجار المخدرات يجدون من يدافع عنهم، والمظلومين يداسون بالأقدام، الكبار والأغنياء يحصدون كل شيء، والفقراء يموتون جوعا !

ترك المكتب وانصرف، ووعده أن هذا آخر عهده بالعمل في المحاماة. تدخلت ميرفت ابنة الأستاذ إسماعيل، وحاولت أن تهدي الأمور فيما بينهما. لكن شريف أصر على الخروج من المكتب، فلحقت به، وطلبت منه أن يجلسا سويا في مكان هادىء، فأخذته إلى جراند كافيه، شرعت تتأمل ملامحه.وهو يحتسي القهوة، وتسرح في عيونه

- مش عجباني دماغك دى ؟

- مالها دماغي ؟

- عايش في عالم مثالي، يابني فوق، الدنيا اتغيرت، مفيش حد مثالي في الزمن ده

- وده عيب ولا ميزة

- بصراحة انت كلك مزايا، بس للأسف معندكش حظ.. خليك ورا بابا وانت تكسب

- محبش أبيع دماغي لحد..

قرر عدم العودة، واكتفى بما يحصل عليه من عمله

بالمحكمة، رضي بأن يعيش في الظل، الدنيا لا تستحق أن نذل انفسنا من أجلها،أن نبيع ضمائرنا من أجل تلك الأوراق الملونة، تذكر حديث عمر بن الخطاب الذي كان يردده الشيخ طه... الأحمق من باع آخرته بدنياه

شعر بأن حياته بدأت تستقر، فقرر الاستجابة لرغبة أمه، أن يبحث عن زوجة، تجبره على الإستمرار في الحياة، أن ترى أولاده قبل أن تموت، فكر في ميرفت ابنة إسماعيل المحامي، تلك الفتاة المثقفة، خريجة كلية الحقوق، والتي تعمل في مكتب والدها، لكنها صاحبة مزاج، تختار قضايا الأحوال الشخصية، تأخذ ملفات القضايا معها إلى البيت.

تأتي المكتب على فترات، تعتبر أن العمل بالنسبة لها مجرد تسالي، حتى تستقر في بيت زوجها. وساعتها ستكتفي بتربية أولادها.

بعد لقائهما في جراند كافيه، طلبت منه أن يلتقيا في المساء بساقية الصاوي، وحينما ذهب شاهدها تجلس على خشبة المسرح، تعزف على آلة الدرامز، لم يكن يتوقع أن تكون ميرفت غريبة الأطوار هكذا، في الصباح ترتدي روب المحاماة، لتقف أمام القاضي، لتترافع عن إمرأة تطالب بحقوقها من زوجها، أو تريد أن تخلعه لتتخلص منه، وفي المساء ترتدي البنطال الجينز، والقميص الكاروهات، وتعزف موسيقى بهذا الصخب، ما أن

انتهت من تلك المعزوفة الموسيقية الصاخبة، حتى صفق لها الحضور بحرارة، وما أن انتهت وصلة التصفيق، حتى نزلت إليه وجلست بجواره.

- إيه المواهب دي، أنا كنت فاكرك بتروحي البيت تخلعي روب المحاماة، وتلبسي مريلة المطبخ، وتقعدي تقشري بصل وتوم، بس بصراحة انتي مُزه في النيولوك ده .

- أعتبرده تحرش.. أنا محامية وأقدر أحبسك ست أشهر

- شكلي أنا اللي هاحسبك مؤبد .

إبتسمت في خجل، وهي تتأمل ملامحه، لقد فهمت ما يقصده، شريف عرض لا يمكن رفضه، شاب في مقتبل العمر، لديه مستقبل لا بأس به، لا ينقطع الحديث عنه بداخل البيت من أبيها وأمها.. يقولون لولا الظلم الاجتماعي الذي تعرض له، لصارله الآن شأن كبير..

لقد قرر أن يتزوج من ميرفت، فهي الأنسب على الإطلاق، فهي تعشقه، لكنها متمنعة، وكذلك لديها إمكانيات لا بأس بها، ستعوضه عن حب أميرة وجسد دلال، لقد عزم الأمر أن يرتبط بها، لكنه سيبقى على مبدأه، لن يعود إلى مكتب والدها إلا بشروطه ..

شريف يؤمن بأن لكل رجل، ثلاث نساء في مراحل حياته المختلفة.

المرأة الاولي، الحب الاول وهو الحب العذري الأفلاطوني، وجربه مع أميرة زميلة الجامعة، أما المرأة الثانية، فهي التي يفرغ فيها طاقتة الجنسية، حب فترة المراهقة، وجربه مع دلال، أما المرأة الثالثة، فهي التي تقع بين الحب الافلاطوني، وحب المراهقة، وغالبا ما تكون الزوجة، لكنه في النهاية، لن ينسى حبه الاول (أميرة)، في حين يمحو من ذاكرته حب المراهقة (دلال).

****

لكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، جاء اليوم المشئوم الذي إنقلبت فيه حياة شريف رأسا على عقب ! تم نقل حسام بك مهران إلى محكمة جن ايات القاهرة، وقدم إلى المحكمة، وكيلا جديدا للنائب العام، جاء منقولا من محكمة الجيزة، وكان من سوء حظ شريف، أن يكون كاتبه، ومع أول لقاء بينهما تذكره، إنه هشام سلطان السمان، زميل الجامعة.

ما أن جلس أمامه حتى دارت الدنيا برأسه، هشام الذي كان يحصل على شرحه المبسط، ليحصل على درجة النجاح بتقدير مقبول، هشام الذي كان يعيره دائما بعمل والده، تدور الأيام دورتها، ويصبح رئيسه في العمل.

من أول يوم قدم فيه إلى المحكمة، ورأى شريف يجلس بجواره، حتى عاود ممارسة سخافاته القديمة، أظهر مدى كرهه لشريف، الذي فكر يوما أن يناطح السحاب، حلم بأن تتساوى

الرؤوس، تمنى أن يشب حريق هائل بين طبقات المجتمع، فتذوب وتصبح طبقة واحدة، بدأ هشام يستعرض عضلاته،يصرخ في وجهه لأتفه الأسباب، يتصيد له الأخطاء، يعيره بعمله، كما كان يعيره بعمل أبيه من قبل، شعر بمدى الشماته من نظرات عيونه، نسي أنهما كانا يجلسان بجوار بعضهما البعض في مدرج واحد..تباً لك يا هشام !.

- انت فاكر نفسك معيد ولا وكيل نيابة، انت شغال شغلانه عيل في رابعة ابتدائى.

كان شريف يصمت كثيرا وهو يراه، يعامل الناس بقسوة، يتوسط لتسوية قضايا معارفه وأقربائه، يصدر قرارات بالإفراج عن بعض المقبوض عليهم، بعد مكالمة تليفونية من أحد المسئولين، بل كان يخطيء في إصدار الأحكام، يفتح القانون ليقرأ منه نصوصه،

ما زال بليداً كما كان طالباً، لكنه بأي حال من الأحوال، أصبح رئيسه في العمل، ويجب أن يحترمه، لكي يحافظ على لقمة عيشه.

لكن هشام لم يقدر ذلك، بل تمادى في تجريحه، وإهانته أمام المتهمين والعساكر وزملاء العمل، وصلت به القسوة أن يكسر أنفه، يذله ويجرح كرامته، حينما تعمد أن ينسى حقيبته وينصرف،ثم أرسل إلى شريف، أن يجلب له حقيبته، فأخذها

وهرع نحو السيارة ليعطيها له، ما إن اقترب منه وتطلع إلى داخل السيارة، حتى صُدم وتجمدت مفاصله، شعر أن روحه تصعد، وكأن قطارا سريعا دهسه، حينما رأى أميرة تجلس بجواره،ما زالت متأنقة، ازدادت جمالا فوق جمالها، فرق كبير بين أميرة طالبة الجامعة وأميرة الزوجة، كانت تحتضن طفلا صغيرا، يشبهها كثيرا، لكنه أخذ من أبيه أنفه الكبير. ما أن رأته حتى بادلته الصدمة بصدمة والدهشة بدهشة، ثم أخذت نفسا عميقا، إحتضنت طفلها وأغمضت عينيها، وكأنها محاولة منها لامتصاص الصدمة، حتى انصرف شريف من أمامها، بعدما أخذ التعليمات من هشام بالانصراف، لم تدرك أميرة أن هشام بكل هذه القسوة، لم ينسَ أن شريف كان أفضل منه، بل أحق منه بقلب أميرة.

ما أن انصرفت السيارة حتى سقط شريف على الأرض، زُهقت روحه، لقد سلبتها أميرة بلا رحمة، لم يكن يتوقع أن تسلم قلبها لهشام، أن تحتضن ذلك المتعجرف، أن تُجلسه في قلبها، أن يتقمص دوره في الحياة، أن يسلب وبقسوة منه كل ممتلكاته.

منذ ذلك اليوم لم يعد يتحمل شريف كل هذه القسوة، فاض به الكيل لم يعد يحتمل إهاناته، لم يشعر إلا وهو يصرخ في وجهه، بل يتهجم عليه، ووصل صوته إلى خارج الغرفة، فتحَ الباب، ودخل العاملون بالمحكمة، وسمعوا شريف يصرخ فيه:

- إنت نسيت نفسك.. إنت تقديرك مقبول.

شعر هشام بالإهانة، لكنه وجدها فرصة، ليقضي على وجود شريف، بل يعيده إلى نقطة الصفر من جديد، ويبعده عن وجهه، والذي يذكره دائما، بأنه كان بليدا، تافها، وفي لحظة غضب، طلب من العسكري الواقف أمامه، أن يقبض عليه ويدخله الحجز.

قضى شريف أسبوعا في الحجز، لأول مرة يتم القبض عليه، ينام وسط المجرمين واللصوص، يحرم من حضن أمه، والتي زارته أكثر من مره، وتوسلت إلى هشام أن يعفو عن ابنها، لكنه عاملها بمنتهى القسوة وطردها من مكتبه.

مع تدخل بعض القضاة، وافق هشام على الافراج عنه، لكنه أصر على فصله من العمل، رغم معرفته بمدى احتياجه لتلك الوظيفة، لقد استكثر عليه أن يجلس بجواره ليكون تحت إمرته، ضيع على نفسه وبغباء فرصة أن يكسب شريف ولو لمرة واحدة..

تم فصل شريف من العمل، وعادت حالته النفسية كما كانت، بل إلى الأسوأ، عاد إلى عادته القديمة، تكوم في غرفته، إمتنع عن الطعام والشراب، ترك لحيته وشاربه، ترك أمه تدبر حالها بنفسها، لتعود لمد يدها، لتأخذ ما تبقى من أفواه الجيران.

(٩)

أوبرا

وقفت عربة المترو في محطة أوبرا، ركب شاب ملتحٍ، يرتدي جلبابا أبيض ويغطي رأسه بشال أبيض، أخرج من جيبه مصحفاً صغيراً، وأخذ يرتل القران، وما زال باب العربة مفتوحا..

دخل مجموعة من رجال الأمن، يتقدمهم ضابط يرتدي بالطو أسود، ونظارة سوداء، بطوله الفارع وجسده الرياضي، ما أن دخل من باب العربة، حتى شرع رجال الأمن الذين دخلوا خلفه، يفتشون رواد العربة، يطلبون التحقق من بطاقات الهوية، اقترب الضابط من شريف، ونظر إليه باشمئزاز، ثم أمره بالوقوف، فوقف على الفور، وبلهجة قوية أصابت شريف بالرعب:

- بطاقتك

أخرج شريف بطاقة الهوية، نظر اليها الضابط في سخرية، وهو يتأمل ملامحه وملابسه الغريبة وقرأ الوظيفة بسخرية:

- حاصل على ليسانس حقوق !

ثم ألقى بالبطاقة في وجهه. وانصرف من أمامه. ووقف أمام ذلك الشاب الملتحي. وأمر المخبرين أن يقتادوه إلى خارج العربة. فسحبوه من ذراعه. ونزلوا به من العربة. وهو مستسلم لهم. وما أن خرجوا من العربة. حتى أُغلق بابها وتحرك المترو.

التفت شريف إلى النافذة. فوجد الشاب الملتحي. يقف على الرصيف. أسفل لوحة المحطة. يتوسل إلى الضابط أن يتركه. ولكن دون جدوى. أخرج الضابط علبة السجائر من معطفه. سحب منها سيجارة. أشعلها وأطلق دخانها في الهواء. متجاهلا تلك اللوحة المكتوب عليها «ممنوع التدخين». كما تجاهل توسلات ذلك الشاب.

****

ظل شريف متكوما في غرفته. إبتعد عن الجميع. رافضا التحديث مع أحد. رافضا الطعام والشراب. حتى صار كأهل الكهف. بشعره الأشعث ولحيته الطويلة وشاربه الكثيف.

اندهشت ميرفت وهي تدخل غرفته. رأته ولكنها لم تعرفه. بتلك الملامح الغريبة التي يبدو عليها. ليس هذا شريف الذي كان يجالسها في ساقية الصاوي. يدندن وهي تعزف علي آلة الدرامز. يجلس بجوارها في السينما. يختلس إليها النظر. يمد يده بعفوية ليتحسس يدها. يتأمل عيونها فتتوه في عيونه.

اقتربت منه، مدت يدها لتعانق يده، تنظر في عيونه الواهنة الضعيفة، تحاول أن تذكره بنفسها . أنا حبيبتك ميرفت، هيا لنخرج سويا، نواجه صعوبات الحياة معا، لقد إخترتك لتكون حبيبي، فكن جديرا بحبي..

لكنه لم يلتفت إليها، لم يعرها انتباها، أنكرها وأنكر كل ما بينهما. استيقظت ميرفت من الحلم الذي كان يراودها، لم يعد شريف فارس الأحلام، ليس هذا شريف الذي عرفته، الذي رسمت حياتها لتكون معه، كانت تخطط أن تضعه مكان أبيها إسماعيل، في البيت والمكتب، تضعه في قلبها، هذا الشخص الذي يتهاوى بعد كل نكبة في حياته، كيف يتحمل مسئولية أسرة مكونة من زوجة وأولاد، كيف يحمي أسرته وهو بكل هذا الضعف، تركته في ضعفه، وخرجت من غرفته، بعدما أسقطت شريف من حساباتها للأبد.

****

لم تدع أمه الأمر يمر هكذا، لابد من إيقاظه من حالته تلك، دخلت غرفته والدمعة تحرق عينيها، تحاول أن تنقذ ما يمكن إنقاذه، تقنعه بالخروج من حالته تلك، الدنيا لم تسقط، وليس معنى أن يسقط من بين أيدينا حلم، أن نسقط بالكلية، فالدنيا ممتلئة بالبدائل، والمستقبل ما زال مفروشا بالورود.

- يا بني هون عليك، وما تنساش إني مليش غيرك بعد

أبوك، إن كنت هتفضل على حالتك دي، رجعني البلد، أموت وسط أهلي، اللي فارقتهم عشان تعيش انت وأبوك، رجعني أحب على يدك يا ولدي، أنا ما عيزاش أموت من قهرتي عليك، مش كفايا بأموت كل يوم، وأنا بمد يدي للي يسوا واللي ما يسواش.

- انتي اللي قدمتي أوراقي في المحكمة يا أمي..

- بصراحة يا ولدي، زميلتك أميرة اللي كانت وياك في الجامعة، جت سألت عليك، ولما عرفت بالحال، طلبت مني أوراقك، علشان تشوفلك شغلانة .

- كده فهمت، أميرة تدخلني المحكمة، وجوزها يطردني منها.

- البت كان قصدها شريف يا ولدي، قوم يا ولدي استغفر ربنا، واتوضى وصلي الجمعة، وادعي ربنا يفرج كربك وكربنا.

سحبته من ذراعه، ودفعته إلى الحمام دفعا، وصوت الأذان يُسمع من المساجد المحيطة، إصطدم بتلك المرآة المعلقة على الحائط، تأمل وجهه الذي صار كهيكل عظمي، عيونه التي صارت غائرة، وملامحه التي إختفت خلف شعره الكثيف، فصارت غريبة عنه.

أخذ حماما ساخنا، ورجل شعره الكثيف ومشط لحيته، وارتدى جلبابه الأبيض وتوجه إلى المسجد، لأداء صلاة الجمعة، كان الجامع الكبير قد انتهى من الصلاة، فأسرع الخطى إلى مسجد صغير في آخر الشارع يسمى مسجد التوبة، دخل وصلى ركعتين خفيفتين، وجلس ليستمع إلى الخطبة، ينصت إلى ذلك الإمام، الذي ما زال يقف على المنبر، رغم انتهاء جميع المساجد من الصلاة ، والذي كان يخطب عن واجبات الحاكم

- يقول الإمام علي بن أبي طالب رضى الله عنه (لابد للناس من أمير، برا كان أو فاجرا، يعمل في إمرته المؤمن، ويستمتع فيها الكافر، ويبلغ الله فيها الأجل، ويجمع به الفيء، ويقاتل به العدو، وتأمن به السبل، ويؤخذ به للضعيف من القوى، حتى يستريح به بر ويستراح من فاجر).. انظروا إلى واجبات الحاكم الفاجر.. فما بالكم بواجبات الحاكم العادل، وهل يعمل حكامنا بهذا، هل يؤخذ للضعيف من القوي، هل يحكمون بالعدل، هل هناك عدالة إجتماعية بين أفراد المجتمع.

ظل شريف ينصت إلى الإمام حتى انتهى من الخطبة، وصلى ركعتي الجمعة، وما أن انتهى من صلاته، وجلس في صحن المسجد، يتمتم بالتسابيح، حتى اقترب منه الإمام الشاب الذي كان يخطب الجمعة وجلس بجواره، بجلبابه الأبيض ووجه الممتلىء، ولحيته السوداء الطويلة

- السلام عليك يا أخ الاسلام.. انا أخوك يحيى المعصراوي..
- وعليكم السلام.. وأنا شريف حمدان.. تشرفت بفضيلتك ..
- أنا أتوسم فيك الخير يا أخي.. والدال على الخير كفاعله..
- أى خدمة يا مولانا ؟
- أنا أعرف حكايتك.. وما فعلته بك الحكومة الكافرة.
- كافرة.. ؟

ما أن سمع شريف كلمة.. الكافرة... حتى إرتبك ونظر إليه في ريبة، تذكر هؤلاء الذين كانوا يعترضون على خطب الشيخ طه، كانوا يطلقون نفس العبارات اللاذعة .

قام وتركه واتجه إلى خارج المسجد، فتبعه يحيى المعصراوي كظله، فأسرع شريف الخطى، لكن يحيى هرول خلفه وهو مستمر في حديثه، عن الظلم والفساد والجهاد، وشريف يستمع إليه ولا يرد، بل كان يسرع الخطى، حتى يصل إلى بيته في أسرع وقت، هربا من هذا الرجل، الذي التصق به كظله، حتى وصل إلى عتبات البيت، ويحيى يمد يده ليسلم عليه بحرارة، ويودعه عند باب البيت، وكأنه يعرفه منذ سنوات طويلة، فرد عليه شريف السلام، ودخل البيت بسرعة، وكأنه يهرب من ملك الموت.

ما أن فتح باب البيت، حتى وجد أمه متكومة على الأرض، اقترب منها في فزع، أخذ يقلب جسدها الواهن الضعيف،

وينادي عليها، والدموع تفر من عيونه، وجهها أصفر كالليمون، والنبض ضعيف، وعيناها غائرتان، وشفتاها يابسه كورقة شجر خريفية. حملها بين ذراعيه، ووضعها في سريرها، حاول أن يعيد اليها الحياة، سكب المياه الباردة على وجهها، دعك يدها الباردة كشتاء قارص، لكنه شعر أنها قد دخلت في غيبوبة. حملها على كتفه، وخرج بها إلى الشارع، حاول أن يوقف سيارة أجرة، الجو صيفي شديد الحرارة، والشارع خالي من المارة.

لمحه يحيى المعصراوي من بعيد، ومعه مجموعة من شباب المسجد، يرتدون جلابيب بيضاء ولحاهم طويلة، هرول نحوه في فزع وأخذ ينادي عليه حتى اقترب منه:

- خير يا شيخ شريف.. مالها الست الحاجة.

- مش عارف عندها حالة اغماء.

أشار يحيى إلى سيارة أجرة، وما أن وقفت أمامهم، حتى ركب يحيى بجوار السائق، وركب شريف وأمه في الكرسي الخلفي، بينما ركب باقي الرجال في سيارة أخرى، ما أن ركب الشيخ يحيى حتى طلب من السائق أن يغير مؤشر المحطة التي تنبعث منها أغنية صاخبة، إلى اذاعة القرآن الكريم، فأطاعه السائق على الفور فظهر صوت الشيخ عبد الباسط يرتل (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أمنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ: أن اللَّهَ مَعَ الصابرينَ (١٥٣) وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أمواتٌ: بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ

(١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصابرين (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أصابتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا أنا لِلَّهِ وَأنا اليه رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ(١٥٧)

ترك يحيي السائق، والتفت نحو شريف بنظراته المرتبكة، يتأمل أمه الراقدة بجواره تنازع الموت، ولا يدري كيف سيتصرف

- إلى أين وجهتك إن شاء الله يا شيخ شريف ؟

- المستشفى العام

- مستشفى حكومي ! هل تريد أن تكرر مأساة ابيك، لا قدر الله، انطلق بنا ياسطا الى مستشفى الرحمة الخاصة..

حاول شريف أن يشرح له، إنه لا يملك أجرة السيارة التي يركبها، أن فاتورة المستشفى الخاصة، ستدخله السجن إلى الأبد، أن أباه مات منذ سنوات، لأنه لم يجد في جيوبه ثمن علاجه، لكن يحيى أشار إليه أن يصمت، وابتسم ابتسامة عريضة، أدخلت الاطمئنان إلى قلب شريف، الذي لم يملك ساعتها إلا أن يصمت أمام تلك العبارة..

- لا عليك يا أخ شريف.. توكل على الله، فنحن أخوة ولن ندعك بمفردك.

لقد وجد الفرصة سانحة أمامه ليسحب شريف إلى عالمه، شعر أن القدر يقوده اليهم، فاستسلم لما يجري له، حتى وصلوا

إلى أسوار المستشفى، فانقبض قلبه حينما تذكر ما حدث لأبيه حمدان، وخشي أن تتكرر تلك التجربة المريرة من جديد مع أمه.

أدخلوها قسم الاستقبال، والتف حولها فريق متخصص من الأطباء،

- أين كنتم حينما كان حمدان ينازع الموت،لم يكن يمتلك ثمن العلاج فُترك حتى مات !.

ترك الشيخ يحيى المعصراوي شريف أمام الباب الزجاجي يراقب أمه الراقدة وحولها الأطباء، في حين توجه إلى خزينة المستشفى، ليدفع مبلغا من المال تحت الحساب.

تم الكشف الطبي عليها و تشخيص حالتها،انها تعاني من أنيميا حادة، وتحتاج إلى عملية نقل دم، فأدخلوها العناية المركزة، وتمت عملية نقل الدم والرعاية اللازمة.

بدأ الدم يجري في عروقها فيروي جسدها، وبدأت حالتها تستقر، فتحت عينيها، وعاد النبض إلى معدله الطبيعي، عادت إلى الحياة، فهدأت أعصاب شريف وشكر الله.

اقترب من يحيى واحتضنه وقبل رأسه، لقد أنقذ أمه من الموت المحقق، لكن يحيى طلب منه أن يشكر الله، فلولا عناية الله ما تم علاجها، واستأذن منه في الانصراف بعدما اطمئنوا إلى حالة الأم، ودفع حساب المستشفى بالكامل، وأرسل أحد الاخوة لشراء الطعام، ووعده أنه سيمر عليه في المساء ..

جلس شريف بجوار أمه يقبل يدها ويبكي، يطلب منها أن تسامحه. انه هو السبب في كل ما حدث، ما مات أبوه حمدان. الا حسرة على ما آل إليه مستقبله. وها هي أمه تموت

من الجوع، كما كفرت ميرفت به وبعشقه. إنه لا يستحق الحياة. لابد أن يخرج من حالته. لابد أن يرفض الاستسلام. أن ينهض من أجل أمه وحبيبته ميرفت.

قضت الأم عدة أيام في العناية المركزة، حتى عادت إليها الحياة، عادت النضارة إلى وجهها. استعادت بعض عافيتها. لكنها لن تستعيد كامل عافيتها إلا بعودة شريف إلى الحياة. ليأخذ بيدها ويرفع رأسها. ليتقمص دور حمدان من جديد.

خرجت الأم من المستشفى إلى بيتها. وأهالي الشارع يتوافدون عليها جماعات ليطمئنوا على صحتها. وسؤال يتردد فيما بينهم. كيف استطاع شريف إدخالها إلى تلك المستشفى الخاصة ذات التكاليف الباهظة ؟ لكن الجواب انتشر في الشارع كانتشار النار في الهشيم. إنه الشيخ يحيى المعصراوي بارك الله فيه. هو من تكفل بمصاريف علاجها.

****

على مدار الأيام التالية كان الشيخ يحيى المعصراوي ورفاقه يترددون على منزل شريف. ليطمئنوا على حالة أمه الصحية. وطلب منه أن يصلي في مسجد التوبة. فبعض الأخوة يريدون أن

يطمئنوا على حالة أمه الصحية، لكنهم يخجلون من الحضور إلى البيت.

بدأ شريف يتردد على المسجد، يقضي فيه أغلب الوقت. يصلي الفرائض الخمس، ويحضر مجالس الذكر، ودروس العلم، يقرأ في كتب التفسير والحديث، يتهجد ويقوم الليل. وبدأ ينخرط معهم في أنشطتهم الخيرية، يجمع التبرعات من المقتدرين من أهل الشارع، يوزع التبرعات المالية والعينية على الفقراء، يصلي بهم أحيانا في غياب الشيخ يحيى، أصبح لا يدخل البيت الا مع نور الصباح، لكن قلبه كان ينقبض أحيانا، حينما يدور الحديث عن الحكومة والظلم والجهاد، لم يقبل فتاواهم، كره تشددهم، تذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي كان يردده الشيخ طه دائما في خطبه

(ان الدين يسر، ولن يشاد الدين أحدٌ إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة، وبشيء من الدلجة)

- جارة لي من أهل الذمة، وغدا عيدهم، هل أعيد عليها يا مولانا ؟

- مشاركة أهل الذمة أعيادهم المخالفة لشرع الله.. حرام يا أخت الاسلام.

قرر أن يكف عن الذهاب إلى مسجد التوبة، وأن يعيد ترتيب

أوراقه من جديد، قرر أن يتجاهل كل ما سبق من حياته، أن يمحوه من تاريخه، أن يبدأ في كتابة تاريخ جديد، مهما كانت تفاصيله، ومهما كانت أحداثه، لكنه بأي حال من الأحوال،لابد أن يخرج من حالته تلك وبسرعة من أجل أمه، وحبيبته ميرفت، وروح حمدان الذي مات بحسرته على حال ابنه، لابد أن يحتضن أمه ويرفعها فوق رؤوس الناس، أن لا يدعها تتسول طعامها، لقد قرر أن يعود إلى الحياة، أن يعود للعمل في مكتب إسماعيل المحامي، حتى لو خالف ضميره، أن يتزوج ميرفت، وينجب أطفالا يملئون حياته وحياة أمه، يجبرونه على الإستمرار في الحياة..

في أحد الأيام، وبعد أن صلى العشاء خلف الشيخ يحيى، وبدون أن يستأذن منه ترك المسجد، وعاد إلى البيت، فوجد أمه راقدة في سريرها، تعاني الوحدة، فشريك البيت دائما خارج البيت، دخل غرفته، خلع الجلباب الأبيض، ووقف أمام المرآه يتأمل ملامحه التي باتت غريبة عنه، فأمسك بماكينة الحلاقة، وحلق شاربه ولحيته الطويلة، غسل وجهه بالماء والصابون، فظهر أمامه شريف الذي فقده منذ شهور.

ذلك الشاب الطموح، ذلك الدنجوان الذي دوخ البنات، الذي صارع الكبار حتى سقط من فوق حصانه، لقد قرر أن يعاود إمتطاء صهوة جواده، أن يستعيد أحلامه ويفر نحو

مستقبله، أن يصارع من أجل البقاء، أن يعود إلى الحياة، من أجل أمه الراقدة في سريرها، تتألم من الجوع والوحدة.

اقترب من أمه التي فتحت عينيها، لتجد ابنها شريف في أبهى صوره، عاد إليه الشباب والحيوية، قبل يدها وأعطاها العلاج، وأطعمها بيديه، وهو يعتذر لها، ويخبرها أنه سيعود للعمل في مكتب إسماعيل المحامي، وسيتزوج ابنته ميرفت، سيعود بيتهم من جديد، يوزع الخير على الجيران، سيعمل ويجتهد، وسيخرجون من هذا القبو، إلى سكن جدير بهم فوق الأرض، لن يستسلم بعد اليوم، فرحت الأم بعودة ابنها إلى رشده من جديد، وقامت من سريرها، وكأن رجوع ابنها إلى الحياة كان هو الدواء.

****

كانت ساعات الليل تقترب من الانقضاء، وقبل أذان الفجر بساعة أو يزيد، دقَ الباب بقوة وعنف، قام شريف من نومه مفزوعا، واتجه نحو أمه الراقدة، والتي قامت مفزوعة:

- فيه إيه، مين عما يخبط علينا في الوقت المتاخر إكْدِه، يا ولدي؟

اتجه نحو الباب وفتحه، فوجد أمامه ضابط من أمن الدولة وخلفه كتيبة من العساكر، أمام الباب، وعلى درجات السلم، والمدرعات ترتص أمام البيت وحتى آخر الشارع

- انت شريف حمدان ؟

- أيوه يا فندم

- تعال معانا بهدوء وبدون شوشرة

- أجي معاكم فين.. معاك إذن نيابة ؟

نظر إليه باستهزاء وقال في سخرية:

- انت ما درستش ان البلد فيها قانون اسمه قانون الطوارىء... هاتوه...

التف العساكر حوله، وجذبوه من ملابسه، وقيدوه من يده، وهو لا يدري أهذا كابوس جديد، أم أنها حقيقة. ماذا فعل ليحدث له كل هذا. أخرجوه من البيت بالقوة، وأمه تكاد أن تسقط من فرط الدهشة والذعر الذي أصابها، تصرخ في الضابط، تحاول أن تمنعهم من القبض على وحيدها.

- سيبوا ولدي، ما عملش شيء، طمني يا ولدي، انت عملت إيه ؟

- والله يا أمي ما عملت حاجة، اطمني، أنا راجع ان شاء الله.

عادت تتوسل إلى الضابط، أن يترك ابنها، أن يخبرها القصة، ماذا فعل ابنها، لكي يتم القبض عليه هكذا كاللصوص، لكنه تركها تتوه في كم الأسئلة التي ليس لها جواب، وأشار إلى رجاله، أن يقتادوه إلى السيارة الرابضة أسفل المنزل، وأغلقوا الباب في وجهها، ظلت تصرخ حتى تكومت على الأرض.

تم اقتياده إلى مديرية أمن الجيزة، وفي مكتب أمن الدولة، جلس شريف أمام الضابط

- تعرف واحد اسمه يحيى المعصراوي ؟

- أيوه.. اتعرفت عليه من فترة بسيطة ..

- من فترة بسيطة ويتردد على بيتك أكتر من مره، فترة بسيطة ويدفع مصاريف علاج أمك في المستشفى الخاصة، بسيطة وانت ليل نهار في مسجد التوبة..

- مش فاهم قصد سيادتك إيه ؟

- انت ما تعرفش، ان الأخوه دول منضمين لخلية جهادية، تهدف لقلب نظام الحكم، وامبارح كانت في محاولة لاغتيال وزير الداخلية وأغلب الظن ان ليهم يد فيها.

- أقسملك بالله، أنا لا منضم لخلية، ولا اشتركت في أي أعمال مخالفة للقانون.

- على العموم، انت ضيفنا كام يوم، لحد ما نتأكد ان ملكش علاقة بالناس الأشرار دول

تم اقتياده إلى الحجز، وقلبه يهبط ويصعد، شعور عام بالخوف والضيق، رغبة شديدة في البكاء، عشرات التساؤلات تدور في رأسه، ماذا ينتظره أكثر مما حدث له ؟.

ما أن دخل غرفة الحجز برائحتها الكريهة والممتلئة عن آخرها بالسجناء، حتى رأى يحيى المعصراوي ورفاقه بداخلها، لقد تم

القبض عليهم، ويبدو أنهم من أبلغوا عنه، يا لهؤلاء الأوغاد، مدعو الإيمان، فتوجه إليهم وصرخ فيهم، حتى تدخل السجناء وهم يمنعونه من التشاجر معهم

- أنا كنت معاكم ؟.. أنا شاركت في أعمال مخالفة للقانون؟

- اهدأ يا أخ شريف.. أقسملك بالله ليس لنا أي علاقة بهذا الحادث، إنه إجراء عادي تأخذه الداخلية مع كل حادث، يتم القبض على رجال المعارضة. بحجة قانون الطوارىء.

ظل شريف في الحجز لعدة أيام، دون أن يتم استئناف استجوابه، حضرت أمه ومعها إسماعيل المحامي، الذي حاول أن يقابله ليفهم القصة، لكن بلا جدوى، لقد عرف من الضابط، أن اسم شريف حمدان، مدرج بكشف الذين صدر لهم أمر اعتقال، وكلها أيام وسيتم ترحيله إلى معتقل وادي النطرون، لكنه أخفى عن أمه الخبر، خوفا من أن يصيبها مكروه، أخبرها فقط أنه بمجرد أن تنتهي التحقيقات خلال أيام ، سيعود اليها.

مر أسبوع منذ أن تم القبض عليه، وشريف ما زال في غرفة الحجز، ملت الأم من كل تلك المسكنات التي تطالبها بالصبر، فاقتحمت مكتب الضابط، تتوسل وتبكي وهي تقبل يده، ليخرج ابنها البرىء من السجن،أن تراه، تلمس يده، تأخذه في حضنها

ولو لدقائق، لكنه رفض حتى أن تراه ولو من بعيد، فظلت ترد على المديرية يوميا، تحضر له الطعام تظل حتى منتصف الليل أمام المديرية، لكنها لم تستطع أن تراه.

ذهبت إلى منزل المستشار حسام بك مهران، والذي ما أن رأها حتى قبل يدها ورحب بها، وسألها عن شريف ولكن صوت بكاءها طغى على كلماتها غير المفهومة،حاولت زوجته أن تهديء من روعها، وطلبت من حسام أن يساعدها، والذي ارتدى ملابسه على الفور وأخذها في سيارته إلى المديرية، قابل الضابط وعرف منه القصة، شريف اسمه مدرج ضمن الكشوف التي سيتم ترحيلها إلى معتقل وادي النطرون، ولا جدوى من أي تدخل، الموقف أكبر منه، ومن سلطاته القضائية، رغم كل محاولاته، لم يستطيع الا أن يسمح للأم أن تقابل ابنها، لدقائق معدودة.

ما أن فُتح باب الزنزانة، وتم النداء على اسمه ورأى أمه تقف أمامه، حتى جرى نحوها، ظل يبكي في حضنها، إنه عقاب الله له، لأنه تركها تتسول طعامها، وانزوى في ركن مظلم يقتله اليأس، طلب منها أن تدعوله، أن تسامحه، أن تقدر ظروفه التي أوصلته إلى حالته تلك، والتي جعلته يتخلى عنها، يتركها تمد يدها، أن يكون سببا في تحولها إلى الجوع والمرض.

****

تم ترحيله إلى سجن وادي النطرون، وفي عربة الترحيلات،

شعر أنه في كابوس طويل، حتما ستطرق أمه باب غرفته، ليستيقظ من نومه ويذهب إلى عمله في الجامعة، لكنه رأى من شباك العربة الصغير، أسوار السجن العالية، والأسلاك الشائكة وأصوات الكلاب التي تنبح في كل مكان، العساكر الذين يقفون مدججين بالسلاح، رأى تلك الوجوه التي تركب معه السيارة، فشعر أنه ذاهب إلى الجحيم.

تجاهل يحيى المعصراوي ورفاقه، الذين كانوا معه في عربة الترحيلات، رفض الدخول معهم في أي حوارات، لقد قرر أن يمحوهم من ذاكرته للأبد، ما دخل السجن إلا من وراء علاقته بهم.

ما أن نزلوا من عربة الترحيلات، حتى تم اقتيادهم في صفوف، إلى شاويش السجن، الواقف كالثور بوجهه العابس، وملامحه الغليظة، وسلسلة المفاتيح التي تتدلى من حزام بنطاله، أخذ يتحسس جسد شريف بيده الغليظة، يفتش ملابسه بعناية، يفتح فمه وتنظر بداخله، وبعد الانتهاء من التفتيش اللازم، تم وضع الجميع في حجز الإيراد، حتى يتم تسكينهم في قسم المعتقلين السياسيين.

****

توقفت عربة المترو من جديد، لقد انقطع التيار الكهربائي، شعر الجميع بالاستياء والتأفف، بدأت درجات الحرارة في

الارتفاع، رغم برودة الشتاء، لكن الرطوبة اجتاحت تلك العربات المغلقة وبدأت تخنق الانفاس، وبدأ الجالسون في الوقوف، ينظرون إلى خارج العربة من خلال النوافذ.

لكن شريف إعتاد على هذا الجو الخانق، في ذلك القبو الذي يسكنه، وفي السجن أيضا، لا يوجد فرق كبير، بين الأماكن المغلقة، البيت أو السجن أو عربات المترو، فتركهم وعاد إلى شريط ذكرياته من جديد..

****

حجز الإيراد، تلك الغرفة الصغيرة، التي تمتلىء بالسجناء، ذات الإضاءة والتهوية الضعيفة، والتي تشعرك أنك بداخل قبر، حيث رائحة الرطوبة والبول وعرق السجناء.

شعر شريف بالضيق، وتراكمت على رأسه الهموم، كم ظل طوال الليل يبكي، يتضرع إلى الله، أن يخرجه من هذا الكرب، من تلك الزنزانة اللعينة، من ذلك السجن الإجباري الذي دخله ظلما، تمنى أن يعود إلى أمه، يقبل قدميها، يأخذها ويعود بها إلى الصعيد، يعيشان هناك بعيداً عن العاصمة، بعيدا عن الكذب والزيف والضوضاء والزحام، يعود إلى جذوره، يتعلم الزراعة، ويعيش على خير الأرض، يزرع ويحصد..

مرت عشرة أيام وشريف في حجز الإيراد، حتى تم توزيعه على قسم السجناء السياسيين زنزانة رقم (٦) بعنبر رقم (٢)،تلك

الزنزانة التي سيقضى بها المدة التي لا يعلمها إلا الله،يرتدي الملابس البيضاء المكتوب عليها « تحقيق « لكن متي سيتم التحقيق معه لا يدري !

ما أن دخل الزنزانة حتى رأى وجوها يبدو عليها اليأس، إنهم معتقلون سياسيون، أُعتقلوا من أجل أرائهم التي قد تكون حقيقية، أو زائفة، قد يكونون أصحاب مبدأ أو عملاء، باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم.. أو قد يكونون أبرياء مثله، تم القبض عليهم، بلا تهمة، سوى أنهم وقعوا تحت طائلة قانون الطؤارى.

ما إن دخل تلك الزنزانة الجديدة، التي سيرقد فيها إلى ما شاء الله، أخذ يتأمل ملامح رفقاء الزنزانة، والذين بادلوه النظرات بالنظرات، من هذا الوافد الجديد الذي سوف يشاركهم تلك الزنزانة، تأمل تلك الجدران التي إمتلأت بكتابات طبشورية، كلمات كثيرة وأسماء أشخاص، وتواريخ متفاوتة تركت للذكرى، كأنها سبورة كبيرة تنتظر من يمسحها.

جلس في المكان الذي خصص له، لكنه بمجرد أن جلس وأسند ظهره إلى الجدار، حتى أصابه شعور بالغثيان، ألم شديد يجتاح معدته، ولدية رغبة قوية في إخراج ما بجوفه، العرق يبلل جبهته، وجسده ينتفض كطائر بللته قطرات المطر في شتاء شديد البرودة، لم يشعر إلا وهو يصرخ ويتلوى على الأرض من فرط الألم، وليس هناك مجيب، السجان الواقف

على الباب، يرفض نداءات وتوسلات رفقاء الزنزانة، بأن هناك سجين يتلوى من الألم، يجب أن يخرجوه من الزنزانة، أن يتم نقله إلى مستشفى السجن، ليشتم الهواء النقي، بعيدا عن تلك الرائحة الممتلئة بالرطوبة.

استيقظ دكتور علاء سليمان، النائم في آخر الزنزانة على صوت شريف، رفع الملاءة عن وجهه، واتجه نحو شريف المتكوم على الأرض يتلوى من الألم، أخذ يقلب في جسده، يفتح فمه، ثم اتجه إلى حقيبته، وأحضرها بجوار شريف، الذي ما زال متكوما على الأرض وحوله رفقاء الزنزانة، فتح الحقيبة وأخرج منها ميزان الحرارة، دسه في فم شريف لدقيقة ثم أخرجه، وأعلن لزملاء الزنزانة، أن حرارته اقتربت من الأربعين، أخرج حقنة فارغة (سرنجة)، وأفرغ فيها أمبولا صغيرا، ثم أعطاها له في العضل، ثم وضع في فمه عدة رشفات من زجاجة دواء، وأرقده في فراشه على الأرض، وأخذ يضع كمادات المياه الباردة على جبهته، حتى بدأت الحرارة في الانخفاض، وبدأ شريف يهدأ، وتستقر حالته نوعا ما، ويغيب في نوم عميق.

استيقظ شريف على صوت أذان الفجر، فتح عيونه بصعوبة، فوجد رفقاء الزنزانة مرتصون لصلاة الفجر في جماعة، وما أن انتهوا من الصلاة، حتى عاد كل منهم إلى فراشه، وامتلأت الزنزانة بأصوات القرآن والتسابيح، فاطمأن قلبه

وشرع يتمتم بالاستغفار والصلاة على النبى، حتى غرق في نوم عميق.

في الصباح فتح شريف عيونه من جديد، فوجد الجميع حوله، وبينهم الدكتور علاء الذي أنقذ حياته بالأمس، وَجَه إليه الشكر، في حين قدم إليه شخص آخر الطعام، لكي يستعيد عافيته، فشعر بالراحة النفسية، من هذا الجو الممتليء بالود، فالزنزانة هنا مختلفة تماما عن غرفة الإيراد الذي ظل بها عشرة أيام، والتي كره فيها حياته، حتى فكر في الانتحار، شعر هنا بالراحة والأمان، بين تلك الوجوه الطيبة.

مرت الشهور وراء الشهور، أيام السجن طويلة، ولياليه أطول، الساعات تمر ببطء، لم يجد ما يسلي به وقته، سوى تلك الساعات التي يخرج فيها لساحة السجن الواسعة، منذ الصباح وحتى الخامسة مساء، يمارس اللياقة البدنية، يؤدي الصلوات، يجلس في المكتبة يقرأ، ابتعد عن كتب القانون، وانشغل في قراءة كتب التاريخ والشعر والرواية والسير الذاتية وكتب الدين والشريعة.

اقترب أكثر من رفقاء الزنزانة، الذين أخذوا يهونون عليه تلك الأيام الصعبة، بدأ يشعر بالراحة النفسية من التواجد معهم، وجوههم مضيئة وابتساماتهم لا تنقطع، وكلماتهم تصل إلى القلب، حكاياتهم مختلفة، لكنها في النهاية قادتهم إلى هنا، بذنب

أو بدون ذنب، فلا أحد يعلن دائما أنه مذنب، الكل يرى نفسه بريئا، وجميع من حوله مذنبون.

مع الوقت بدأ يسمع حكاياتهم، وملابسات اعتقالهم، كل أسباب اعتقالهم واحدة، أنهم فكروا يوما أن يرفعوا أصواتهم فوق صوت النظام، بعضهم لديه مبدأ، والبعض الأخر يكررون شعارات الأخرين، لكنه لم يشعر بينهم بالخوف، فحكي لهم حكايته.

****

أبرز رفقاء الزنزانة دكتور علاء سليمان، كان يعمل طبيبا في مستشفى الدمرداش، ولديه عيادة صغيرة في حي الأزهر، لا يعرف الذنب الذي ارتكبه، سوى أنه كان يساعد الفقراء، يقدم لهم الكشف والعلاج بالمجان، اشترك في إحدى الجمعيات الخيرية، وفجأة تم وضع هذه الجمعية ضمن الجمعيات المحظورة وتم القبض عليه، ومصادرة ممتلكاته،ترك أسرته الصغيرة بلا عائل، كم بكى وهو يحكي عن ابنته الصغيرة فاطمة، التي تركها منذ سنوات، رفض أن تأتي هنا لتراه خلف القضبان.

كان أكثرهم كرما، السيد كمال عبدالحميد، رجل أعمال طيب القلب، تأكد من خلال تعامله معه، أن ليس كل رجال الأعمال لصوص، لكن يبدو أن تلك المهنة تفرض على أصحابها أن يكونوا لصوصا، منهم من يستجيب لنداء السرقة، ومنهم

من يتقي الله ويتحرى الحلال، كل الطعام الذي يدخل الزنزانة من نفقته الخاصة، يعطي بسخاء إلى السجان، والذي بالتالي يسمح بدخول الطعام والعلاج إلى الزنزانة. دخل السجن بسبب وشاية أحد رجال الأعمال المحسوبين على النظام، كان ضحية من ضحايا زواج السلطة بالمال.

وبينهم الحاج محمود عبدالعال، والذي ما أن خرج على المعاش حتى شعر بفراغ كبير، بعدما تزوج أبناؤه، وتركوه في شقته بمفرده، فكان يقضي أغلب الوقت في إحدى الزوايا، يصلي ويقرأ القرآن، ومع الوقت كان ينظف الزاوية، يؤذن للصلاة ويصلي بالناس، لكنه اكتشف بعد ذلك أن هذه الزاوية، تتبع إحدى الجماعات التي تناهض النظام، فتم القبض عليه، ممن تم القبض عليهم، بدون ذنب جناه.

ورغم أن بعضهم كان يبدو أنه دخل السجن عن طريق الخطأ، لكن شعر بأن البعض الآخر، على علاقة فعلية بجماعات تهدف إلى الثورة، وقلب نظام الحكم، كانت كلماتهم تنتقد الحكومة، وتدعو عليها ليل نهار، يعددون طوال الوقت مساوىء الحكومة، يعترضون على كل شيء، فتذكر يحيى المعصراوي ورفاقه الذين كانوا السبب في اعتقاله.

كل ما كان يشغل باله الآن هي أمه، التي أصبح بينه وبينها عشرات الكيلومترات، لم يعد يعرف أخبارها، تمنى أن تكون قد

عادت إلى الصعيد، لتعيش وسط أهلها، كما طلب منها في آخر زيارة،حتى يخرج من السجن، ويلحق بها هناك،ليعيشوا معا بعيدا عن العاصمة.

****

مرت خمسة أشهر منذ آخر زيارة، وحنينه إلى أمه يتزايد، بدأ يسأل عن مواعيد الزيارة، حتى عرف أن هناك زيارة قريبة، فقضى الأيام على أحر من الجمر ينتظر قدوم أمه.

على أبواب سجن وادي النطرون – ليمان ٤٣٠- حان موعد الزيارة، عيون أم شريف تدمع وقلبها يناجي ربها بفك الكرب، تعيد ترتيب أفكارها علّ الزيارة تسنح لسرد تفاصيل انقطعت عن فلذة كبدها.

في تمام العاشرة صباحا، على إحدى نقاط طريق مصر إسكندرية الصحراوي، كان هناك جمع من الناس بينهم أم شريف، يقفون تحت وهج الشمس الحارقة على أبواب ليمان «٤٣٠»، حاملين كميات كبيرة من الأغذية والملابس لذويهم، ينظر أحدهم في ساعة يده معلنا أن موعد تسجيل الأسماء يبقى له ساعة، يُفتح باب صغير عبر مجند طبعت الشمس حرارتها على وجهه، يدلف الحضور في صمت، دعاء «بالفرج» « يا مسهل»..

داخل استراحة كبيرة ذات سقف عالي بدأ الأهالي في الانتشار، بحكم العادة يقول أحدهم لمن يحضر للمرة الأولى إن

الزيارة تحين بعد ثلاث ساعات على الأقل فلا داعي للقلق، كان يخصص لكل سجين عدد ثلاثة أشخاص للزيارة.

في تمام الثالثة عصرا حضر الشاويش معلنا عن بدء الزيارة، قسّم الحضور على مرحلتين، بدأ الجميع في الاصطفاف، نادى على الأهالي، بدأت الأساريرفي الابتهاج، حضر «الطف طف» – قطار صغير يجره جرارُزراعيُ- لنقل الأهالي.

الشمس تحرق الجلود، غير أن حُمى اللقاء المرتقب تهون كل شئ، يبدأ الجميع في ترتيب أنفسهم مع عائلات لم يصل عددها إلى الرقم المحدد، ثلاثة أفراد لكل سجين.

- أنا هعمل ابن أخوكي يا حاجة

يقولها أحدهم لأم شريف، فتربت على كتفه في حنو

- ربنا يخليكوا يا ولدي متقلقش كلاتنا هنخش.

لوحتان ضخمتان داخل السور العالي المؤدي إلى الزنازين، الأولى تعلوها عبارة «السجن قديما» لرجل قبيح الوجه يقبض بيديه على كرباج يجلد به ظهور السجناء، بينما تحتل اللوحة الأخرى مظاهر مبهجة لنزلاء يتعلمون على سبورة صغيرة، وزملاء لهم يركلون الكرة في سعادة بالغة، تعبيرا عن حال «السجون حديثا».

أحد عشر شهرا من السجن كانت كافية لتعميق الأحزان، وفقدان الأمل، وتزايد الإحباط، غير أن بصيصا من نور طغى

على ملامح الزنزانة الكئيبة، ففي الوقت الذي كان الجميع يتحرّق شوقاً للقاء، باب كبيريزمجر، وقع أقدام للجنود، يعقبها رؤية السجناء لذويهم، حالة فرحة عارمة، دموع تنسال دون إرادة، ملابس بيضاء مذيلة بعبارة « تحقيق» .

تهليل، أحضان، كلمات لا يُعرف مصدرها خرجت من أفواه عدة «بإذن الله خير.. المحامي طمني.. أخواتي عاملين ايه.. أنا كويس متقلقوش.. أنا تعبت ومش قادر..»،

يضحك شريف في تفاؤل حينما راى أمه، ثم يبكي على كتفها، تُكون دموعه كرات كبيرة من الماء، تثبته الأم في حزم، قبل أن تنخرط هي في نوبة بكاء.

- عيب يا ولدي.. انت عمرك ما عيطت قدامي قبل اكْدِهْ.

- وحشتيني يا أمي.

- الحمد لله الزيارة المرة دي مش من ورا السلك، زي المرة اللي فاتت، كان نفسي أخدك في حضني قوي يا ولدي.

تقولها أم شريف وهي تهم باحتضانه، حينما تعالت الصافرات لانقضاء الزيارة، صوت كصافرة مباريات كرة القدم لتعلن نهاية اللقاء.

ودع شريف أمه وهو يعيد مطالبتها بأن ترحل إلى الصعيد، لتعيش وسط أهلها هناك، حتى يأذن الله له بالخروج من السجن، ليعشا سويا في الصعيد وسط أهله. كان يخشى عليها

أن تجوع ولا تجد من يطعمها، أن تمرض فلا تجد من يذهب بها إلى المستشفى.

أن تموت وحيدة، ولا يشعر أحد بموتها حتى تفوح رائحتها، أن لا تجد من يدفنها.

****

عاد شريف إلى الزنزانة حزينا، شعور باليأس يجتاح أوصاله، تركت الزيارة في نفسه شرخا كبيرا، كأن روحه عادت إليه ثم سلبت منه، يتسأل متى سيتم التحقيق معه؟ حتى يعرف إلى متى سيظل في هذا السجن .

حاول رفقاء الزنزانة تخفيف أحزانه، ومطالبته بالصبر، فالكل هنا ترك أبناءه بلا عائل، تركوا المريض والجائع والمسافر والضعيف، وانقطعت بينهم السبل، لكن لابد أن يكون على يقين بأن الله لا ينسى أحداً من خلقه، ولا يملك إلا الصبر والدعاء بتفريج الكرب.

حاولوا إصدار بعض المواقف التي تعرضوا لها في حياتهم، بعض الذكريات المريرة أحيانا والمضحكة أحيانا أخرى، ففي بعض الأحيان يكون الضحك، هو الوسيلة المثلى للتخلص من بعض المشاكل، تتحول المواقف الصعبة في يوم من الأيام إلى مجرد نكته مضحكة.

يذكر الدكتور علاء سليمان أنهم حينما اعتقلوه، اقتحموا

عن طريق الخطأ، بيت جاره الحاج علاء سليم والذي يعمل في أحد مصانع القطاع العام، والذي ما أن رأى العساكر بأسلحتهم وعربات الأمن المركزي تحيط به، حتى رفع يده لأعلى معلنا الاستسلام، أعلن بصوت جهوري،أسمع كل سكان العمارة، أنه ليس له أي علاقة بأي جماعات، وأنه لا يصلي، وأنه يسرق أقمشة المصنع ويبيعها في السوق السوداء، وأنه يشرب الحشيش، وأخرج لهم قطعة من الحشيش كانت في جيبة، فما كان من الضابط إلا أن وقع على الأرض من الضحك، وهو يطلب بطاقته الشخصية، ومنها عرف أنه ليس المطلوب.

ضحك الجميع، ودكتور علاء يحكي تلك الواقعة، في حين حكى السيد محمد مبروك أنه لم يرى ابنته منذ خمسة سنوات، ولم يسمع صوتها، منذ أن سافرت مع زوجها بعد اعتقاله إلى الكويت، ولم تفكر يوما أن تأتي لزيارته.

مرت عدة أشهر على آخر زيارة، تجاوز شريف العام والنصف، حاول أن يتأقلم مع هذا الوضع المفروض عليه، حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا.

****

عادت الكهرباء إلى المترو من جديد، بدأ الجميع يتنفس الصعداء، بدأت تعود درجة الحرارة إلى معدلاتها، التفت شريف حوله، فلمح اثنين من الرجال يجلسون في الكرسي المواجه له

يتسامرون

- عملتوا إيه مع صاحب المصنع الجديد ؟

- هنعمل إيه.. بعد ما اشترى المصنع من الحكومة، بعد تطبيق نظام الخصخصة، عمال يسرح في العمالة.. هيطلعوني معاش مبكر

- طيب والمصنع، مين هيشغله ؟

- انت طيب أوي .. مصنع إيه اللي هيشغله، هيسرح العمال وبعدها يبيع المكن، وبعدها يبيع أرض المصنع، وبكده يبقى كسب أد اللي دفعه للحكومة مليون مره..

ترك شريف هذا الحوار، وعاود التطلع إلى نافذة العربة، وسرح في ذلك الشريط الذي يلح على إيقاظ ذاكرته، التي بدأت تعاني من الشلل، يحاول أن يمسحه، لكن بلا جدوى، يأتي وبقوة ليفرش تلك الأحداث، على طاولة الحاضر.

****

جلس زملاء الزنزانة يتبادلون الضحكات، للتخفيف من ألم الحبس، بعدما انتهوا من أداء صلاة العشاء جماعة، وانتهوا من التسابيح، وتناولوا طعام العشاء الذي دفع فاتورته كالمعتاد السيد كمال عبدالحميد.

بينما هم كذلك حتى فُتح باب الزنزانة، تطلع الجميع إلى الباب الذي زمجر للتو، وكأنه يستعد لإدخال ريح سموم إلى داخل

الزنزانة، فمن النادر أن يفتح باب الزنزانة في هذا الوقت المتاخر من الليل، دخل ثلاثة من السجناء الجنائيين، يرتدون البدل الزرقاء المكتوب عليها « نزيل «، بدأ الجميع يحبس أنفاسه، إن دخول هؤلاء السجناء إليهم، لا يحدث اعتباطيا، لكن يبدو أن لديهم مهمة محددة، يجهلها الجميع ولو مؤقتا.

جلس السجناء الثلاثة بجوار شريف، الذي انقبض قلبه، من ملامحهم التي تثير الرعب، وجوههم التي طبع الإجرام عليها ملامحه بقوة، ورائحتهم الكريهة، وخصوصا رائحة السجائر التي تفوح من أفواههم.

حاول أن يبتعد عنهم قدر الإمكان، أن يجد لنفسه مكانا آمنا، يحتمي به من هؤلاء الذين يشعون خطرا، فجلس بجوار الدكتور علاء، الذي نظر إلى هؤلاء السجناء في ريبة.

صمت الجميع، وتحولت الزنزانة إلى قبر من الصمت، ما قطعه سوى اقتراب النزلاء الجدد من السيد كمال عبدالحميد، رجل الأعمال الذي تم التحفظ على أمواله وممتلكاته، وتم إيداعه المعتقل بتهمة تمويل جماعات تخطط لقلب نظام الحكم، رغم أنه أثناء سرد قصته، أقسم بالله العظيم أنه ليس له علاقة بأي جماعات ولا يخطط لأي انقلابات، ولكنها تهمة ألصقها به أحد رجال الأعمال المحسوبين على النظام، ليتخلص من منافسته له في السوق، لقد إشترى مصنعا قامت الحكومة بخصخصته،

لكنه رفض أن يسرح العمال أو أن يبيع الماكينات والأرض، بل أعاد تشغيله وحقق من وراءه مكاسب خرافية.

لقد كان مصنعا ناجحا، وعماله على استعداد للعمل، لكن كان ينقصه الإدارة الجيدة فقط، ويبدو أن ما فعله كان مخالفا للعادة، فطلب أحد رجال الأعمال أن يشتري منه المصنع، لكنه رفض، خوفا من تنفيذ مخطط إغلاقه المعروف للجميع.

ما أن اقترب هؤلاء النزلاء من السيد كمال عبدالحميد، والتفوا حوله حتى بدأت المناوشات، أخذوا ينفخون سجائرهم في وجهه، يتلفظون بألفاظ قبيحة..

- ما تتاخر كده.. هي زنزانة أمك يا ... أمك

الآن فهم الجميع تلك المهمة، التي من أجلها دخل هؤلاء السجناء الجنائيين إلى زنزانتهم،إنها لتأديب السيد كمال عبدالحميد، فيبدو أن أحد الكبار، يريد أن يعطيه درسا، أو ليجبره على فعل شئ، وكالعادة صمت الجميع، ليتركوا المهمة تمر بسلام، وبلا مشاكل، سيأخذ السيد كمال الطريحة اللازمة، ثم يخرج السجناء بسلام.

لم يصل إلى عقل شريف، عديم الخبرة ببواطن السجون، ودهاليز السياسة، هذه الخطة المدبرة والتي اعتاد عليها رفقاء الزنزانة، فلم يستطيع أن يصمت كما صمت الجميع، لكنه تقمص دور عنترة بن شداد، حامي الديار، وتدخل ليدافع عن

السيد كمال، لكنه تلقى عدة لكمات مباغتة في وجهه وجسده، وذلك لإجباره على التزام الصمت، من باب « خليك في حالك «.

اشتعلت النيران في جسد شريف، فاستدعى روح أبيه حمدان، الذي ضرب أمام عينيه، فتوة المنيب ورجاله منذ سنوات طويلة حينما حاول مغازلته أمه، وانهال عليهم ضربا، مما شجع رفقاء الزنزانة على التدخل، وإعطاء السجناء الثلاثة درساً قاسياً، حتى لا يتجرأ أحدُ على الدخول إليهم مرة اخرى.

أخيرا استجاب السجان لأصوات الصراخ، بعد ساعة من الشجار، معتقداً بأن السجناء الثلاثة قد أنهوا مهمتهم على أكمل وجه، وأن السيد كمال قد أخذ الطريحة، وهو الأن متكوم على أرضية الزنزانة ينازع الموت، لكنه صدم حينما رآهم، يستغيثون للخروج من الزنزانة، متهمين السيد كمال وشريف حمدان بالتعدي عليهم، وضربهم ضربا مبرحا.

****

في الصباح تم اقتياد السيد كمال وشريف إلى الحبس الانفرادي بالغرفة السوداء، وهي غرفة كل حوائطها وأرضيتها سوداء،رديئة التهوية، مظلمة، تجتاحها الرطوبة.

قضي شريف عدة أيام بداخلها، كره فيها حياته، ذاق طعم الذل، شعر بأنه في قبره، ينتظر الملائكة لكي تحاسبه، شعر بأنه لن يرى النور مره أخرى، كان يحادث نفسه طوال الوقت،

يضحك ويبكي ويصرخ ويهمس، استحضر أرواح كل من عرفهم، كان يضحك حينما يستحضر روح من أحبهم، ويبكي حينما يستحضر أرواح من افتقدهم، يصرخ في عبدالقوي وهشام السمان وأميرة، ويهمس في أذن أمه وميرفت، ثم يعاود النظر إلى سقف الزنزانة الأسود الذي لا يبشر بأي خير، لكنه سرعان ما يعاود تذكر الشيخ طه، وكلماته التي تهب لروحه السكينة، فكان يبتهل إلى الله أن يخرجه من هذه الغرفة، التي أصابته بالجنون، ويعود إلى زنزانته القديمة حيث رفقاءه القدامى .

****

مرت عشرة أيام، لكنها كانت بمثابة عشرة سنوات، خلقت منه إنسانا مغايرا، عن شريف الذي عرفه الجميع، انقلبت حالته المزاجية، بعد أن رضي بما قسم الله له، وعاش على أمل أن يخرج من سجنه يوما ما، ليعاود استكمال حياته بجوار أمه وأحبابه.

بدأ ينعزل عن الجميع، يستمع إليهم دون أن ينطق بكلمة، يصمت كجبل من الجليد، تمر الأيام ولا يكاد يُسمع صوته، بعد عدة أيام شوهد وهو يحادث نفسه، يضحك أحيانا، ويبكي أحيانا كثيرة، يخاطب أباه حمدان وأمه سعاد، يطالبهم بأن يأتوا ليأخذوه من سجنه ، يحادث إسماعيل المحامي ويطلب منه أن يسأل السجان عن تهمته، عن عدد السنوات التي سيقضيها

هنا. لقد مر على سجنه عامان وسبعة أشهر وخمسة عشر يوما وست عشرة ساعة، أليست كافية، هل هناك سنوات أخرى قادمة ؟

يظل يحادث أميرة ودلال وميرفت، يفتح ذراعيه ليحتضن إحداهن، يقبل الهواء ويتحسس الفراغ، ينغمس في علاقات وهمية، يفرغ فيها رغبته، لكن سرعان ما يعود، ويستغفر الله.

كان يقضي أغلب وقته في المكتبة، انغمس في قراءة كتب علم النفس، بدأ يشخص حالته، ويوهم نفسه بأنه مريض نفسي، وشرع يبحث عن العلاج بداخل الكتب.

تم عرضه على الأخصائي الاجتماعي للسجن، والذي شخص حالته على أنها فصام في الشخصية، ونصح رفقاء الزنزانة، بأن يحاولوا مساعدته في الخروج من تلك الحالة حتى لا يتمادى فيها، فشرعوا في إجراءات كورس العلاج الذي نصح به الطبيب، فأخذوا ينقلون إليه أخباراً كاذبة بهدف إدخال الأمل وإشعاره بالتفاؤل، فبدؤوا يخبرونه أن أمه ستزوره قريبا، وأن ميرفت وأميرة يسألون عنه ويشتاقون إليه ، وأنه سيخرج قريبا، وأن المستشار حسام مهران قدم أوراقه إلى جامعة حلون ليحصل على الماجستير، لكنه تجاهل كل هذا، لم يعد يهتم، تناسى كل الماضي والحاضر والمستقبل.

شعر السيد كمال بالذنب، وحاول أن يساعده بأي وسيلة.

فكان يرسل ابنته إسراء لزيارة أمه في البيت، فتقوم برعاية شئونها وتقديم المساعدات المالية والعينية، وكانت تأخذها بسيارتها لزيارته في السجن، فقامت بزيارته أكثر من مرة، حاولت خلال تلك الزيارات أن تخرجه من حالته، لكنها شعرت بأن ابنها قد ضاع منها للأبد، لم يعد يعرفها، يتجاهل كلماتها، يظل طوال الوقت يهز رأسه ويضحك، لا يرد على عشرات الأسئلة التي تطرحها عليه، فقط يستمع إليها بلا تركيز، يحملق بعيدا ويسرح، حتى تنتهي الزيارة.

ظل علي حالته تلك شهورا طويلة، انطوى على نفسه، رفض أن يحلق شعره أو لحيته وشاربه، فصار مثل أهل الكهف.

(١٠)
التحرير

توقفت عربة المترو أخيرا على رصيف محطة التحرير..

تأمل شريف ذلك الصندوق الخشبي الرابض أسفل قدميه، وتلك اللوحة التي تعلو الرصيف والمكتوب عليها بالبنط العريض.. التحرير.. رأى أبواب المترو تُفتح على مصراعيها، لقد وصل إلى آخر محطة، وبدأ الركاب في ترك أماكنهم ونزلوا أفواجا إلى الرصيف.

****

لم يصدّق شريف عيونه المتعبة، وهم يفتحون له أبواب السجن، ويطلبون منه أن يخرج إلى بيته، حيث حضن أمه، لقد أصدر رئيس الجمهورية عفوا رئاسيا عن بعض المعتقلين السياسيين، بمناسبة عيد الأضحى المبارك، وكان شريف حمدان واحدا منهم.

لقد حصل على حريته أخيراً، لقد خرج العصفور من القفص، وعاد ليحلق في سماء الحرية من جديد، لكنه صار أشلاء إنسان ممزق محطم، صار مهزوزا ضعيفا، كماً مهملاً، صار كمجاذيب السيدة، لكنه بأي حال من الأحوال عاد إلى بيته وفراشه وحضنه أمه الذي حرم منه، عاد إلى صورة أبيه المعلقة على الجدار، تئن من الوحدة، عاد إلى الزحام والضوضاء ورائحة الدخان، عاد وكله عزم ألا يخالف القانون، ألا يفكر في الاقتراب من تلك المناطق المحظورة، عاد ليمشي بجوار الحائط، ولو يستطيع المشي بداخلها لفعل، عاد والخوف يتملكه من تكرار تلك التجربة المريرة من جديد.

قادته قدماه إلى الشارع الذي يعيش فيه، الأضواء والزينات تغطي الشوارع احتفالا بالعيد، صوت أم كلثوم يحتفل بخروجه، وكأن يوم خروجه صار عيدا « يا ليلة العيد أنستينا.. وجددتي الأمل فينا.. يا ليلة العيد» .. الناس كما هي منذ أن تركهم، يزدحمون على رغيف الخبز، تمتليء وجوههم بالضحك رغم الأحزان التي تختبيء بداخلهم، كل من قابله أخذه بالأحضان، الرجال والنساء والأطفال، وكأنه كان أسيرا لدى جيش الأعداء، وصوت الزغاريد يُسمع من النوافذ، وأصوات مختلطة تنادي على أمه من بعيد

- يا أم شريف.. شريف خرج من السجن..

« سجن. أي سجن. شريف لم يسرق. لم يقتل. لم ينتهك حقوق الآخرين. لماذا ألقيته في السجن يا أيها العزيز. لماذا حرمته من بيته ووسادته وصوت أمه !»

لمح أمه من بعيد وسط الزحام. تهرول كسحابة صيف. رسم الفقر على جسدها النحيل معالمه بقوة. وجهها صار أشبه بورقة شجر خريفية. شفتاها التي كانت مكتنزة وأشبه بالفراولة. يسمع صوت حمدان يمتص رحيقها بلا كلل. صارت أشبه بجدار ينتظر السقوط. مازالت ترتدي السواد. منذ أن قدمت من أقاصي الصعيد. منذ أن فارقت موطنها. وأسرتها وزوجها ثم ابنها.السواد هو سيد الموقف. لم ترتد الأبيض إلا في ليلة عرسها.

رآها تخترق الجموع تهرول لتحتضن ابنها الوحيد. الذي غاب عنها على مدار ثلاث سنوات.. صار هزيلا ضعيفا.. لحيته طويله وشعره أشعث ويداه مرتعشه وعيونه غائرة

« ماذا فعلوا بك يا شريف ؟»

احتضنها وضمها إلى صدره بقوة. جسدها صار هزيلا. أين قدها الممشوق الذي دوخ حمدان. فاختارها دون بنات القرية. فقر الدم امتص لحمها ولم يُبقِ إلا على تلك العظام التي تلملم هذا الهيكل النحيف. دموعها ساخنة. وحضنها دافيء وملامحها قاتمة وأصابع يدها صارت أشبه بأصابع عصفور صغير.

سار معها نحو ذلك الجحر الذين يعيشون فيه، وحولهما أهل الشارع يباركون عودته، لمح ذلك الطفل الصغير حسين، يقف بجوار البيت ينظر إليه ودموعه تكاد أن تهطل، اقترب منه واحتضنه

- ماذا جرى لك يا حسين ! لم يعد شريف مثلك الأعلى، لم يعد ذلك الحلم الذي تريده أن يتكرر فيك، دعك من ذلك الطريق واسلك طريقا آخر.سامحني يا صديقي، لم يكن بيدي أن أصير هكذا ..

ما أن دخل البيت، حتى وقف أمام صورة أبيه حمدان، المعلقة على الحائط، احتضنها وظل يبكي، يطلب منه السماح، لقد خذله، لم يحقق حلمه، صار شبح إنسان، خالٍ من الطموح، شاخ وهو في ريعان شبابه،

- لقد أسأت الاختيار يا حمدان، العلم ليس سلاح الإنسان القوي، وطريق المستقبل الناجح ، عذرا يا والدي !.

استلقى على الأرض، وفرد ذراعيه ومد رجليه وشرع يحملق في السقف، أحضرت أمه الطعام لكنه لم يستطيع أن يضعه في فمه، ليس لديه رغبة، ابتلع بعض الماء وشرب كوب الشاي الساخن، جهزت له أمه حماما ساخنا، ليزيل رائحة السجن عن جسده، الذي أنهكه الحبس، ليس لديه القدره على انتزاع ملابسه، أدخلته أمه الحمام، ونزعت عنه ملابسه، وأجلسته

على الكرسي الخشبي الصغير، فأعطاها ظهره كما كان يفعل وهو طفل صغير، حينما كانت تضعه في (الطشت) وتغسل رأسه وجسده بالماء والصابون.

- هل هرمت يا شريف، أم عدت طفلا من جديد ؟!..

ظل طوال الليل متكوما في حضن أمه يقبل يدها ويبكي، يطلب منها أن تسامحه، أن تصفح عنه، أن تغفر له ضعفه وقلة حيلته، يحاول أن يطمئنها، إنها أيام وسيعود إلى حالته، هكذا أخبره طبيب السجن، إنها حالة نفسية مرت بكل الذين دخلوا السجن، طلب منها ألا تقلق، سيعود ابنها شريف إلى حالته قريبا.

في الصباح، كانت تكبيرات العيد تدوي في كل مكان، المساجد تعلن الفرحة مع التكبيرات المتتالية، ألبسته أمه ملابسه وسحبته من ذراعه إلى الساحة الشعبية لأداء صلاة العيد، الرجال والنساء والأطفال يسيرون في مواكب جماعية لأداء الصلاة، مجموعة من الأطفال في الشارع يلعبون الكرة، ما إن رآهم حتى ترك يد أمه، جرى خلف الكرة وركلها بقدمه، ثم عاود الامساك بيدها من جديد، لتجره كطفل صغير، يتلفت حوله، يتأمل الشوارع والمحال التجارية، والنساء والبنات، يضغط بيده على يدها، يتشبث بملابسها، يخاف أن تترك يده، فيضيع وسط الزحام.

بين الجموع الزاحفة إلى الساحات الشعبية، رأى دلال تسير

بجوارزوجها وبيدها ابنها الصغير، لقد صارت أما، لكن جسدها ما زال بخيره، زادها الزواج فتنة، كان يتأمل ملامح جسدها ويبتسم، نظرت إليه بعيون تمتلىء شفقة، أهذا فارس أحلامها الذي كانت تحلم به ليل نهار، تريده ليكون رجلها بأي صورة، ماذا جرى لك يا شريف ؟

لكنها لم تستطع تحمل المشهد، تركته وعاودت التشبث بيد زوجها، وهي تلقي عليه نظرة أخيرة.

لم تكن دلال فقط التي كانت تشفق على حالته، فكل من رآه كان يتسأل، أين شريف زينة شباب الشارع؟! الشاب الطموح الذي كان يمني نفسه بمستقبل باهر. ماذا جرى له ؟

حينما اقترب من مسجد التوبة، انتفض جسده وهرول بعيدا، تاركا يد أمه، تذكر ما حدث، خشي أن يتكرر من جديد، أن يقبضوا عليه بتهمة مروره من أمام المسجد، نظر إلى أبوابه، تطلع إلى ما بداخله بوجل، رغم أن الحكومة قد ضمته إلى وزارة الاوقاف.

احتشد الجميع في الساحة الشعبية يصلون صلاة العيد، يرتصون خلف الإمام يكبرون، ويكبرون ويكبرون، حتى انتهت الصلاة وانصرفوا لاستكمال مظاهر العيد، أمام الجزار، في المقابر، و الحدائق والمتنزهات، ودور السينما، يتسكعون في الشوارع حتى الليل.

أخذته أمه إلى المقابر حيث قبر حمدان، عله يستلهم روح حمدان الذي ظل يجاهد حتى لقي ربه. أخذته لتطمئنه بأن ولده شريف عاد من جديد، عاد إلى حضن أمه.

قرأ الفاتحة على عجل، وجلس مسندا ظهره إلى مقبرة والده، الراقد بجوار شعبان، الذي هرب من الثأر كما فعل والده، الاثنان الآن تحت التراب، لماذا هربا من الموت إلى الموت ؟

- هل هذه شجاعة يا أبي ؟ ليتك ما غادرت الصعيد، ليتك ما عصيت جدي، كان أحدنا سيموت، والآخر سيعيش في كنف عائلة كبيرة حيث الراحة والأمان الى يوم يبعثون..

التف الأولاد حولها يطلبون الرحمة، فأخرجت من جيبها عدة عملات معدنية، ووزعتها عليهم، وطلبت منهم الدعاء لولدها السابح في ملكوت الله.

شعر براحة نفسية في هذا المكان، حيث الهدوء والسكينة، حيث المثوى الأخير..

- كلنا سنأتي إلى هنا، لن نستطيع الهرب، مهما كان وضعك ومكانتك، ستأتي إلى هنا رغما عنك، فلماذا نتكالب على الدنيا، والنهاية محسومة ؟!.

لقد قرر أن يبقى هنا، فطلب من أمه أن تتركه بجوار والده، لكنها كانت منشغلة بدموعها التي هطلت من عيونها بلا إرداة منها، بكت على حال زوجها حمدان الراقد تحت الثرى، في مقابر

الصدقات، بعيداً عن موطنه، تبكي على ابنها، الذي صار أشلاء إنسان، ضعيف، مرتعش، كهل في ريعان شبابه.

****

مرت شهور، وشريف على حالته تلك، لم يتغير كما وعدها، بل ساءت حالته، انغمس في التقوقع داخل نفسه، صار منعزلا عن العالم، ظل يتردد على مقبرة أبيه، يقضي طوال اليوم بجوار قبره، يظل يحادث نفسه، صاحب رواد المقابر من الشحاذين، وأتباع أولياء الله الصالحين، بدأ يخرج معهم في الأذكار، في الموالد وفي مراسم العزاء، يجلس معهم في حلقات الذكر، يقف ويحرك جسده بعنف، وهو يردد.. الله حي..

ازدادت لحيته وشاربه كثافة، اعتاد على ارتداء ملابس والده، الجلباب الصعيدي، والعمة الملفوفة بشال أبيض، يحمل مسبحة أطول من ذراعه، يطوف في الشوارع، يجلس في المقامات والأضرحة، يتلقي النفحات من النساء والرجال، دون أن يمد يده ليشحذ، كانوا يشفقون عليه أو يلتمسون منه البركة، فيضعون الجنيهات في يده، فيتمتم لهم بالدعاء، تمسح بعض النساء يدها بملابسه وكأنها تلتمس منه البركة. يعود كل يوم لأمه وجلبابه ممتلىء بالفاكهة والكعك، مما يوزعه أهالي الموتى على المقابر، يلقي اليها بكل ما في حجره على الأرض

- خدي يا سعاد.. فاكهة وكعك.. وفلوس

كانت أمه تبكي بحسرة، وهي ترى فلذة كبدها ينحدر إلى هذا المستوى. لم يكن ذلك منتهى أملها في ابنها الوحيد، هل هذه هي نهاية الرحلة، أن يصير ابنها مجذوبا، ظلت تلعن اليوم الذي أتت فيه إلى هذا المولد الكبير، تلعن ضعف حمدان وجبنه، ثم تستغفر الله، وتطلب له الرحمة، حتى فاض بها الكيل، أمسكته من ياقة جلبابه.

- يا ولدي فوق من حالتك دي، انت أفوكاتو قد الدنيا، انت نسيت طموحك ومستقبلك، انت مش وعدتني يا ولدي إننا هنرجع الصعيد، أحب على يدك يا ولدي قوم نلم خلجاتنا ونغور من اهنه ونرجع لأهلنا.

- أرجع لإيه يا سعاد.. هو أنا وصلت علشان أرجع.. وعايزاني أرجع الصعيد عشان يقتلوني.. مش ده كلامك انتى وحمدان.. حمدان اللي فات أرضه، وجه مصر عشان يمسح الجزم.. يا ربته كان وقف سبع ومات راجل.. جابنا هنا عشان نتبهدل، ونموت من الذل.. خلاص خلصت.. عايزانا نرجع عشان نبقى معيرة..

- احنا لسه فيها يا ولدي، تعالى نرجع لبلدنا.. أنا عايزة أندفن في ترب أهلي.. ما عيزاشي أندفن في مقابر الصدقات جنب ابوك.

- أنا هريحك يا سعاد ..

ارتدى شريف جلباب حمدان الأزرق، وفوقها الجاكيت الذي حضر به مقابلة النيابة، وحمل الصندوق الخشبي على كتفه، وهرول إلى خارج البيت، وخلفه أمه التي حاولت أن تلحق به لتفهم ماذا سيفعل، لكنه كان الأسرع، فلم تستطع اللحاق به، فسقطت على الأرض، تركته على عتبات مترو المنيب.

ركب المترو من محطة المنيب، وها هو قد وصل إلى محطة التحرير، ما أن وقف المترو في محطة التحرير، حتى نزل جميع الركاب على الرصيف محتشدين نحو باب الخروج، وفى صوت واحد أخذوا يرددون

- الشعب يريد إسقاط النظام .. الشعب يريد إسقاط النظام

وشريف وسطهم، لم يهتم بهم أو يلتفت إليهم، لم يشاركهم شعاراتهم، بل حمل الصندوق الخشبي على كتفه وسار وسط الجموع، ينادي بصوته العالي

- ألمع ورنيش ألمع.. ألمع ورنيش ألمع

خرجت الجموع من محطة المترو، وشريف وسطهم كالمجذوب، اختلط صوته بأصواتهم، وجد مئات الأف من البشر محتشدون في ميدان التحرير يحملون اللافتات ....

الشعب يريد إسقاط النظام .. ارحل ... الشعب يريد إسقاط النظام

لكنه تجاهل كل هذا وأخذ يردد

- ألمع ورنيش ألمع.. ألمع ورنيش ألمع

حتى وصل إلى المكان، الذي كان يجلس فيه حمدان أمام مجمع التحرير، جلس في مكان والده القديم، وضع صندوقه على الأرض، وأمسك بالفرشاة الخشبية، وأخذ يضرب بها على الصندوق وينادي

- ألمع ورنيش ألمع.. ألمع ورنيش ألمع

أقبل عليه أول زبون، أحد عساكر الأمن المركزي، والذي وضع حذاءه العسكري على الصندوق الخشبي، فسحب شريف الفوطة الصغيرة التي صبغ اللون الأسود بياضها،

وطوق بها الحذاء، ثم أخذ يضرب الحذاء بالفرشاة، بعدما أغرقها بالسائل الأسود، وهو مستمر في ندائه:

- ألمع ورنيش ألمع.. ألمع ورنيش ألمع

أخرج علبة الورنيش الأسود، وأخرج فوطه سوداء صغيرة، دهن الفوطة بكريم الورنيش، ثم أخذ يدهن بها الحذاء، حتى انتهى من وضع طبقة جديدة من الورنيش، ثم أخذ يضربها بالفرشاة حتى صارت تلمع باللون الأسود، ما أن انتهى من تلميع الحذاء، حتى ألقى إليه ذلك العسكري بعملة معدنية فئة الواحد جنيه، فقبلها وجها لظهر، ووضعها في جيبة وأكمل النداء، بحثا عن زبون جديد.

- ألمع ورنيش ألمع.. ألمع ورنيش ألمع .. ألمع ورنيش ألمع .. ألمع ورنيش ألمع.

وصوت المحتشدون في الميدان يغطي على صوته

- الشعب يريد إسقاط النظام..

(١١)

قطار الصعيد

دمعت عيني وأنا أرى ما آل إليه مصير شريف، الجالس أمام صندوقه الخشبي على أرضية الميدان، لا يدري بما يدور حوله، لا يشعر بملايين الجماهير الزاحفة تطالب بالتغيير، تطالب بواقع أفضل، يرفعون الشعارات والعبارات الرنانة.

شعرت بأن الشعب كله يحتشد في الميدان، لكنني حينما غادرت الميدان وعدت إلى المترو، رايت الحياة طبيعية، الشوارع ما زالت مزدحمة والمحال ما زالت تفتح أبوابها، والباعة الجائلون لا يزالون يجوبون الشوارع بلا انقطاع، ركبت المترو حتى وصلت إلى محطة رمسيس، التي ما زالت مزدحمة بالركاب، ومنها ركبت قطار الصعيد الذي يشبه علبة السردين، الركاب يجلسون على المقاعد، في الطرقات، خلف الأبواب، فوق الأرفف المخصصة للحقائب، في دورات المياه، لا يوجد موضع لقدم، اقتحمت

الجموع بصعوبة ووجدت لقدمَي مكانا على أرضية القطار، وضعت حقيبتي بصعوبة على الرف الممتلىء بالركاب الذين تدلت أقدامهم فوق رؤوس الجالسين على المقاعد، وقفت بجوار أحد المقاعد، حيث تجلس سيدة بدينة، يبرز جسدها عن حدود المقعد، تلتفت نحوي طوال الوقت بعيونها الواسعة وخدودها الممتلئة وتطالبني بالابتعاد عنها، وكأنني التصق بها متعمدا، لم ألتفت إلى كلماتها في حين حاولت جاهدا أن أبتعد عنها قدر الامكان.

قررت أن ألتزم الصمت، لم أدخل في حوارت مع أحد، لم أتجاوب مع حوارذلك الرجل العجوز الذي وقف بجواري بجلبابه الواسع والعمة الكبيرة التي يحملها فوق رأسه، والذي أخذ يثرثر بلهجته الصعيدية، بحوارات لا طائل منها، كانت حوارات الناس في القطار، لا تختلف عن ما سمعته بجوار قدرة فول عم سيد، ومقهي المنيب وشوارع القاهرة..

- بيقولوا مصر فيها ثورة النهاردة.....

في حين سمعت، صوتا واهنا لامرأة عجوز، تجلس بجوار النافذة، التفت نحوها بملابسها وطرحتها السوداء التي تغطي رأسها وقالت:

- ثورة إيه يا ولدي .. اللي نعرفه أحسن من اللي ما نعرفوش ..

ما أن أنهت كلماتها، حتى تذكرت ذلك الرجل العجوز الذي كان يجلس بجوار عربة الفول، بكلماته التي ما زالت ترن في أذني

- ثورة إيه بلا خيبة، هو الشعب ده عمره قام بثورة !

شعرت بالملل، فالطريق إلى مدينتي طويل جدا، ما زال هناك عدة ساعات، حتى يصل ذلك القطار إلى مشارف مدينتي، فأنزلت حقيبتي، وأخرجت منها رائعة تشارلس ديكنز «حكاية مدينتين»، وبدأت أستكملها بشغف. لم يقطع سيل إستمتاعي بالقراءة، سوى صوت ذلك الكمسري القادم من بعيد وسط الركاب ينادي:

- تذاكر.. تذاكر يا حضرات..

لم أعرف كيف إخترق تلك الجموع المحتشدة داخل العربة، ليفتش عن تذاكر الركاب، إقترب مني بجسده النحيل، وسيجارته التي تتدلى من فمه، طلب مني التذكرة، فأخرجت له ثمنها، فبادرني بسؤاله المعتاد:

- نازل فين ؟

أجبت على سؤاله، فشرع يكتب تفاصيل التذكرة، ثم قطعها ووضعها في يدي، فدسستها في جيب معطفي، في حين تحرك هو بصعوبة، ليستكمل بحثه عن زبائن جدد، وعُدت أستكمل القراءة من جديد حتى قاربت على نهاية الرواية...

.. أني أرى برساد وكلاي وديفارج والقضاة، صفوفا طويلة من الرجال القساة يلقون حتفهم بنفس المقصلة قبل أن توقف عملها الحالي، وأرى مدينة جميلة تنشأ في هذا المكان الخرب، وأرى أن هذا الشر يتلاشي تدريجيا...

ظل القطار يضرب الأرض، يتوقف عند عشرات المحطات، لينزل ركابا ويركب أخرون، وليستمر مسلسل الصدام بين الركاب طوال الوقت، حتى وصل إلى مشارف مدينتي، شعرت بأن قدمي تؤلمني، من الوقوف طوال الطريق، لكنني لم أشعر بالتعب إلا حينما إنتهيت من قراءة الرواية، وظل الإنتظار هو سيد الموقف.

ظللت أتابع الطريق من خلال النافذة، تلك الأراضي الزراعية الشاسعة، والفلاحون يعملون فيها بلا كلل ولا ملل، ترعة الإبراهيمية التي تمتد كشريط أزرق طويل لا ينتهي.

تلك الطاحونة التي لا تكف عن الدوران، مهما تغيرت الوجوه، بلادي تظل كما هي، لم ولن تتغير، يأتي الحكام ويرحلون وهي صامدة، بنيلها بشعبها، بقدر الله، تسير كمركبة شراعية تحركها نسمات الهواء العليل.

استيقظت على صوت صافرة القطار والذي وقف على الرصيف، فسحبت حقيبتي من فوق الرف ودسست بها الرواية، وتحركت وسط عشرات البشر إلى باب العربة.

نزلت بصعوبة من القطار إلى الرصيف المزدحم، أناس

ينزلون، وأناس يركبون، والحياة مستمرة بلا توقف، لمحت بين الواقفين زوجتي سوسو بطلتها الساحرة، تنتظرني مع صغيرتي دعاء، ما أن ظهرت أمامها حتى انفرجت أساريرها، وهرولت نحوي كقطة برية، حضنتها وحملت دعاء وقبلت وجنتها ، ثم أنزلتها على الأرض وتشبثتُ بيدها.

- حمد الله على السلامة يا بابا، منتظرينك من بدري والجو برد أوي، فين عروستي بقه يا سي بابا ؟ أوع تكون نسيتها..هخاصمك

- لا طبعا .. هو أنا اقدر يا دكتورة دعاء .. العروسة في الشنطة

سألتني سوسو في عتاب واضح، لكنه يختفي خلف ستار من القلق

- قافل تليفونك ليه ؟ قلقت عليك أوي

- التليفون اتسرق..

- بيقولوا مصر فيها ثورة النهاردة...

- ما تصدقيش... كلها إشاعات...

- تمت -

جمال عبدالله مصطفى محمد

• تاريخ الميلاد: ١٦ سبتمبر ١٩٧٧

العنوان: محافظة بنى سويف / مركز الفشن

الوظيفة: مدير ادارة بالوحدة المحلية لمركز الفشن

المؤهلات الدراسية :-

- حاصل علي ليسانس اداب لعام ١٩٩٩

حاصل علي درجة الدبلوم العام في التربية العام ٢٠٠١

حاصل علي شهادات تقدير من

- صالون الكومي الثقافي
- نادي الفشن الرياضي
- جمعية صوت الشارع الادبية

النشاط الادبى :-

- عضو فى نادى أدب قصر ثقافة الفشن

تم نشر قصص قصيرة فى بعض المجلات

الرواية / القصة القصيرة / الشعر

تحت الطبع :-

- تغريد (رواية)

هبوط اضطرارى (مجموعة قصصية)

المحتوى

الإهداء 7

خارج أسوار المترو 9

المنيب 18

ساقية مكي 34

ضواحى الجيزة 40

فيصل 47

جامعة القاهرة 52

البحوث 58

الدقي 63

أوبرا 79

التحرير 115

قطار الصعيد 127

الكاتب في سطور 133

مترو METRO

جمال عبدالله مصطفى

الهيئة العامة لقصور الثقافة 2019

وصلت إلى محطة مترو المنيب، واتجهت إلى شباك التذاكر المزدحم كالعادة، وطلبت تذكرة من تلك السيدة السمينة، القابعة خلف الشباك الزجاجي، فأعطتني إياها، بعدما ألقيت إليها بعملة معدنية فئة الواحد جنيه، وتوجهت بحقيبتي إلى رصيف المحطة، هذا الرصيف الذي أحفظه عن ظهر قلب، وأعرف رواده الذين يترددون عليه يومياً، فالمترو هو وسيلة المواصلات التي أفضلها، بعيداً عن زحام القاهرة الكبرى.

المترو.. تلك النسخة الكربونية المصغرة، من ذلك العالم الذي تحتله الشمس، المزدحم بملايين البشر الذين يرتادونه يوميا، ولكل واحد من هؤلاء حكاية، تختلف أو تتفق مع الآخرين، لكنها بأي حال من الأحوال تستحق أن تروى.

الثمن: واحد جنيه